كيلي بارنهيل

الزَّوجُ الكُركيُّ

ترجمة: عبير عبد الواحد

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

الزَّوجُ الكُركيُّ

رواية

كيلي بارنهيل

ترجمة

عبير عبد الواحد

الكاتب: كيلي بارنهيل
عنوان الكتاب: الزَّوجُ الكُركيُّ
ترجمة: عبير عبد الواحد
X
العنوان باللغة الأصلية: The Crane Husband
الكاتب: Kelly Barnhill
X
تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي
X
ر.د.م.ك: 978-9921-775-92-1
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023
2000 نسخة
X
جميع الحقوق محفوظة للناشر ©
Copyrghit © 2023 by Kelly Barnhill
X
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +
takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH

الاهداء

إلى الأُمَّهاتِ اللَّواتي طِرنَ بَعيدًا،

وَلِمَن تَرَكنَ وراءَهُنَّ...

١

دخلَ الكُركيُّ مِن البابِ الأماميّ وكأنّهُ صاحبُ المكان. سَارَت أمّي مِن خلفهِ، بعضَ الشيء، ويدُها مدسوسةٌ حتى المعصم في ريشهِ. كانَ فارعَ القامة، أطول من الإنسان بقليل. رأيتهُ يَحني رأسهُ ليمُرَّ عبر المدخل الواطئ المُفضي إلى بيتِ مزرعتنا القديم. كانت خطواتهُ مثل خطوات أيِّ كُركيٍّ آخر، انحناءات وزوايا، نحو الأمام وإلى الخلف، ومع ذلك بدا وكأنَّهُ يتصرّفُ بِتَبجُّحٍ لا تُخطئهُ العَين. تفحَّصَ منزلنا بنظرةٍ خبيثة. فقطّبتُ جبيني.

كنتُ قد أعددتُ المائدة، وقطّعتُ الخبز إلى شرائحَ دهنتُها بالزُّبد، كانَ الخبزُ بائتًا حول حافّاته، ولكن تلك هي الحال. حاولتُ جاهدةً تَليينهُ بوضعهِ تحتَ منشفة ورقية رطبة ودافئة بضعَ دقائق. في حينَ غَلَى الحساءُ المعلَّب على الموقد.

كانَ مايكل، أخي ذو الستة أعوام، جالسًا على كرسيّه جلسةً هادئة تمامًا، وكانت عيناهُ واسعتين رزينتين حدَّق بهما إلى مِشية الكركيّ المتغطرسة، وخطواته الواسعة الرشيقة عبر غرفة الجلوس، وعنقهُ الطويلة تَترَجَّحُ جيئة وذهابًا مع كلّ خطوة، مثل بندول الإيقاع. توقفَ الكُركيّ عندما بلغَ عتبة المطبخ، وأمالَ رأسهُ. وقفت أمي بشعرها الأشعث إلى جوارهِ، وقد انحسرت السُّترة عن المنحنى الخارجي لكتفها اليسرى. أسنَدت رأسها إليه. أكانا ينتظران دعوتهما للدخول؟ لقد كانَ بيتُها. لم تتردد من قبلُ، أبدًا، عند إحضار الضيوف.

بالطبع، كانَ هذا أوّل كُركيّ لها!

فغرَ أخي فاهُ.

همستُ: مايكل، أغلق فمك! كنتُ في الخامسة عشرة، ومسؤولةً عن رعاية مايكل منذُ ولادته. فَعَلَ ما أمليتهُ عليه. كانَ يثقُ بي ثقةً مُطلَقة. تحتَ الطاولة، عثرَتْ يدهُ الصغيرة الدَّافئة على يدي، قبضتُ عليها بإحكام. أطبقَ أسنانهُ مُصدرًا صوت طقطقة، إلَّا أنهُ ثَبَّتَ عينيه الواسعتين على الطَّائر.

أنا أيضًا تفرَّستُ فيهِ. لم أستطع منع نفسي من ذلك. كانَ طائر كركيّ هائلَ الحجم. خيَّمَ فوقَ أمي، مع أنها كانت طويلة القامة. رفعتْ رأسها لتنظر إليه، وبادلها النظرة. ضحكت ضحكةً مُقتضبة مثلَ فتاة. ضغطتُ على فمي وقد اعتلت وجهي أمارات التّجهم. فقد علمتُ ما تعنيه تلك الضحكة. دَسَّتْ يدَها الأخرى في ريشهِ، وضغطتْ ثم أفرَجت أصابعها، مُستمتعةً نوعًا ما.

قالتْ: عزيزيَّ، أودُّ منكما أن تقابلا شخصًا ما.

كانَ الكُركيّ مُعتمرًا قبَّعة رجل، مائلةً إلى الأمام، بطريقة افترضتُ أنها ضُبِطَت بزاويةٍ تَشي بالزهوّ بالنفس وخلوِّ البال. وقد ارتدى نظّارتين عَلِقتا على منقاره (كانَ منقاره حادًّا كما الشَّفرة، لاحظتُ ذلك فورًا). ولكن عينيه –القاسيتين والسوداوين والثاقبتين، واللاّمعتين أيضًا لدرجة أنَّهما تؤلمانِ من ينظر إليهما- لم تنظرا عبر النظّارتين إطلاقًا. خالجني شكٌّ في أنَّ النظارتين كانتا من أجل الاستعراض فقط.

ولَجا، هو وأمي، إلى الداخل. كانَ للكُركيِّ جناحٌ مكسور، لُفَّ بِجبيرةٍ بَدَت وكأنّها مصنوعة من قطعتي خشبٍ وشرائطَ مُمزَّقة من أحد قمصان أمي، ارتكزتْ على حمَّالة كتفٍ مَدموغةً بِكلِّ السّمات المميزة لصُنعِ أمِّي الدقيق المُتقَن؛ حيثُ التطريزُ المعقَّد ولحظة عرضية من الجَمال المدهش. حاولَ انتعالَ حذاء، كالإنسان، بيد أنَّ مخالبَ قدميه اخترقت الجلد، وخدشت الأرضية مع كلِّ قعقعةٍ من خُطاه. والحذاء أيضًا كانَتْ من أجل الاستعراض.

(لاحظتُ أنّ الحِذاء حِذاء أبي. أو كان لهُ يومَ كانَ حيًّا. ولا يعني ذلك أن لديّ أيّ ذكرى عن ارتداء أبي لذلك الحذاء. ولا لأيّ حذاء آخر في الحقيقة. كانت ذكرياتي الوحيدة عنه من غرفة مرضِهِ، حيثُ كنا نجلسُ معًا لساعات، ونلعب ألعاب ورقٍ من ابتكاري الخاص، وعادة ما يكون لها أسماء مثل «مَن حصلَ على المستوى الأعلى؟» أو «هذه الأوراق مقترنة الآن، وليست بتلك الروعة»، وكانَ حينها يسمح لي بالفوز مبتهجًا. لديّ ذكرى واحدة فقط عندما كانَ مستلقيًا على فراش الموت، بيد أني لا أفكر فيها كثيرًا).

بسط الكركيُّ جناحهُ السَّليم حولَ أمّي. وشاهدتُ على الفور كيفَ انزلقَ ذلك الجناح حتى أسفل ظهرها والتفَّ حولَ ردفها. لا بدَّ وأنه لاحَ عليَّ الامتعاض، لأنَّ أمي عقدت ذراعيها في الحال، وَرمَقتني بنظرةٍ حادَّة.

قالتْ دونَ أن تُنهي جملتها: أهذهِ طريقةٌ...

رفعتُ كتفيَّ غير عابئة.

لم يقل مايكل شيئًا.

سألتُها: هل سيبقى؟ قصدتُ لتناول العشاء.

- بالطبع سيبقى. قالت والدتي، لأدركَ لاحقًا أنها عَنَت شيئًا آخرَ تمامًا.

أمالَ الكُركيُّ منقاره الطويل إلى الأسفل ناحية أمّي، ومَرّغهُ في رقبتها. قرضَ الطَّرفُ الحادُّ النُّقرة خلفَ عظم ترقوتها، مُتسبِّبًا في بقعة متوهجةٍ من الدم. ولم يبدُ أنها لاحظتْ. غير أنَّ الكركيّ لاحظ ذلك. أو خُيِّلَ إليَّ أنهُ لاحظ. نفشَ ريشهُ على نحوٍ يوحي بنوعٍ من الاعتداد

بالنَّفس. وعبستُ. هيَّأتُ مكانًا حول المائدة، وأضفتُ الماء إلى الحساء ليكفينا نحن الأربعة. أخرجتُ من الخزانة طَبقًا آخر.

سألتُ، مُشيرة برأسي إلى الجبيرة والحمَّالة: ما الذي حدث لجناحه؟

فجفلَ الكُركيُّ لدى ذِكر «جناحهِ».

أجابت والدتي، وهي تُحرِّك أصابعها مُهدِّئة، على طول عنق الكُركيِّ، من غير أن تنظر إلي إطلاقًا: لا بدَّ أنكِ تتذكرين.

هززتُ رأسي بالنفي. ولمَ عليَّ أن أتذكر؟ لكنِّي قررت تجاهل هذا الكلام. تعيشُ أمي داخل رأسها أحيانًا. الفنانون هكذا، كما قيل لي.

قلتُ: ماذا سندعوه؟ لم تُعرِّفينا به، كما ينبغي! وكانَ سؤالي استسلامًا أكثر من كونهِ سؤالاً. وفتَّشتُ في الدرج عن ملعقة إضافية، غير راغبةٍ في النظر إلى أيّ منهما. وفي الحقيقة، لم أكن مهتمَّةً بالجواب كثيرًا. لم أعتزم مناداة الكُركيِّ بأيِّ اسمٍ، أبدًا. كانَ سيرحل سريعًا على أيّ حال. ربَّما بحلول الصباح. لا أعتقد أنَّ أمي أبقت على أحدٍ بجوارها لأكثرِ من أسبوع، لذلك لم أرَ فائدة تُذكَرُ من معرفة أسماء الأشخاص الذين رافقوها إلى المنزل.

سَحَبَت الكراسي إلى خارج، فَصرَّت أرجلها على أرضيّة المطبخ صريرا حادًّا.

- اقعد يا حُبِّي. قالتْ لهُ، وليس لي. غرفتُ الحساءَ في الأطباق، وخلطتُ أوراق السلطة الخضراء التي زرعتها في الفِناء، وقدَّمتها مع الطعام أيضًا. وأملتُ ألَّا يُلاحظ أحدٌ فسادَ الخبز. جلست أمي في حِضن الكُركيِّ، ولفَّت ذراعيها حولَ ظهره، وغمرَ جناحهُ السَّليم جسدها. لطَّخ الدم المنساب من ترقوتها ريشهُ الرَّماديَ. صاحَ، مُمرِّرًا منقارهُ على فخذيها المكتسيتين بقماشٍ من الجينز، وما زال ينقرُ القماش حتى تَنسَّلَ.

بدأنا أنا ومايكل في تناول الطعام. ولمَّا تُجِب أمي عن السؤال بعدُ. أبقى مايكل عينيهِ منخفضتين نحوَ المائدة. لا أظن أنهُ رفعَ بصرهُ مرَّةً واحدة.

في الأخير قالت: «أبي». وكَفَّاها تحيطانِ بوجه الكركي، وقد انصبَّت نظراتُها على عين واحدة سوداء.

لم تنظر إلينا إطلاقًا. «سوفَ تدعوانه أبي».

وفكَّرتُ غاضبة: مُحال!

وعلى الرغم من معرفتي الكافية بالطيور، والتي خوَّلتني لأعلم أنَّ الطيور ليستْ بارعةً في تعابير الوجه، فلم يكن هناك لبسٌ في ابتسامة الطائر المتكلِّفة والشَّهوانية الجَذلى. نَفَش ريشهُ ثمَّ فَلاَّهُ وسَوَّاه. ازدردتُ حسائي، واستأذنتُ، قائلةً إنَّ عليَّ القيام بواجبٍ مدرسيٍّ، وهو ما كانَ صحيحًا، سِوى أنه لم يكن في نيَّتي القيام به حقًّا.

قلتُ لنفسي: لن يبقى. بالطَّبع لن يبقى. لم تكن أمِّي ممَّن يحتفظ بأيٍّ كان بقربها، باستثنائنا، أنا ومايكل. لذلك لم يساورني قلقٌ بشأن الكركيِّ بوجهٍ خاصٍّ.

وكانَ عليَّ أن أشعرَ بالقلق إزاءَ الكُركيِّ.

٢

في وقتٍ لاحقٍ، من ذلك المساء، عدتُ إلى المطبخ ورأيتُ أمي والكُركيَّ مُسترخيين في غرفة المعيشة، وجسداهما مُلتفَّين يتداعيانِ في كتلةٍ واحدة على حافَّة الأريكة. أرتهُ ألبومات صوري وصور مايكل عندما كنَّا صغيرين، وأشادت بنا كم كنَّا ظريفين وأسهَبت، كما لو أنَّ الأمر يهمُّه. راحا يتهامسان ويُناغي واحدهما الآخر بينما كنتُ أغسلُ الصحون وأنظِّفُ المطبخَ. حتى أنهما لم يرفعا بصرهما. مسحتُ تحت المناضد بِحدَّة، ورميتُهما بنظرةٍ غاضبة بينما كنتُ أغادرُ الغرفة.

ساعدتُ مايكل في تهجئة واجبه المدرسي، وحمَّمتُهُ. قرأتُ لهُ حكايةً وألبستهُ مَنامتهُ، وقبَّلتهُ مُتمنِّيةً لهُ ليلةً سعيدة. عادة ما يكونُ هذا هو الوقتَ الذي تكونُ فيه أمِّي قبالة نَوْلها في محتَرَفها الخاصِّ، تُنهي مشروعًا من أجلِ مُشترٍ جديدٍ، أو تُنجزُ بعض الأعمال الغريبة الأخرى التي قامت بها لتُعيننا على الإيفاء بالتزاماتنا المالية. لكنها لم تكن تفعل أيًّا من ذلك. ظلّت على الأريكة مع الكركي، كتلةً متشابكة من الأذرع والسّيقان والرّيش. وفي لحظة من اللحظات طوّحت برأسها إلى الخلف وضَحِكت.

قلتُ بصوتٍ لا يخلو من نبرةٍ قاسية: أعتقدُ أنكِ لا تنوين تفقّد حال الحيوانات والاطمئنان عليها، أو قفل البوّابة، أليس كذلك؟ ولم تلقِ لي بالاً. – ولا حتى القيام بأيّ شيء كان؟ تمتمتُ بغيظٍ قبلَ أن أخطو إلى الخارج، وأرتدي معطفي متأفِّفة!

لم أتوقع أن تلحق بي أمي. وتمنَّيتُ لو أنها لحقت بي. بيد أنها لم تفعل.

كان الليل حالكًا والنجوم بازغةً، وضوءُها ثاقبًا شديدَ السُّطوع إلى درجة أنه من المؤلم النظر إليها. وكانت المزرعة على الجانب الآخر من السّياج رقعة سوداء شاسعة لانهاية لها، يَبترها بين حينٍ وآخر ذاك الوميض المتقطّع. كانَ من السابق لأوانه وقوع أي نشاط في الأراضي الزراعية للحديث عنه، إلَّا أن الضوء البارد المنبعث من أعين كاميرات الحراسة الدّرُون(1) لا يزال ينزلقُ عبر الحقول المعتمة على الطرف الآخر من السّياج الكهربائي. كانت الكاميرات للحفاظ على الأرض في مأمنٍ مِن، حسنًا، من يدري من ماذا. ففي النهاية لم تكن مزرعة عائلتي –على الأقل، لم تعد كذلك– ولا تعنيني في شيء. خسرَ جدِّي لأمِّي المزرعة عندما كانت لا تزال فتاة صغيرة. ومع ذلك ما زلنا نملك المنزل. والحظيرة. وإطلالة على الحقول المحصّنة غير المتناهية، حصّة من شيء كانَ بإمكاننا تسميتهُ ذات يوم بأنهُ ملكنا.

كانَ الجوّ دافئًا بالقياس إلى نهاية شهر فبراير. انخفضت درجة الحرارة إلى ما دون الصفر، ولكن لمرّة واحدة فقط. حينها تلألأت الأعشاب الذّاوية وأعمدة السّياج بطبقةٍ من الجليد،

واشتدّ هبوب الريح ورافقتها لسعة بردٍ ورطوبة. في كل عام يأتي الربيع في وقتٍ أبكر. وزعمَ الناس أنه عمّا قريب لن يكون هناك شتاء أبدًا.

شغلَ مُحتَرَف أمّي كاملَ الدور العلويّ من الحظيرة القديمة. بينما استخدمنا معظم الدور السُّفلي من أجل التخزين، متفرّقات مُتبقية مِن زمنٍ دأبت فيه عائلتي على الزراعة، وأوّل نَولٍ لأمي، وموادّ للمشاريع، ومعدّات لتصنيع الجُبن. وإلى الجانب كانت حظيرة الأغنام التي احتشَدَت في الزاوية وأبَتِ التَّحرُّك. حتى عندما ملأتُ مذاودها بالعلف لم تتزحزح. شيء ما أفزعها.

قلتُ برفقٍ: أيتها النعاج الغبية، ما الذي أزعجك؟

حَملَقت النعاجُ إليَّ، بأعينٍ جاحظة متوحشة. في العادة كانت أمي هي من تَعلف الأغنام وتَحلِبها، وتمرّر يديها على وجوهها إلى أن تطلق زفيرًا خافتًا. كانت تحدّثها بحبٍّ واهتمام وتُهدّئُها. قالت إن هذا ضروريّ، يجب أن تحافظ على علاقة وثيقة مع الأغنام، بما أنها كانت هي من تسرقُ صوفها مرتين في السنة، حيث تَبطحها وتضع ركبتها على أعناقها كي تكبح مقاومتها، وهي تُعمِلُ عليها مقصّ جَزِّ الصوف، مُتجاهلة صيحاتها في كلِّ مرة تحزُّ فيها جلودها عن طريق الخطأ. ولمّا غدت أغنامنا السابقة عاجزة عن منح الحليب، وباتت أصوافها خشنة وخفيفة وغير صالحة للاستعمال، لوّحت لها بالاقتراب منها، وهي تحملُ السّكين وبحنان أمسكتها إلى أن جفّت آخر قطرة من دمائها. انتحبت وهي تُملّحُ لحومها، وتغلي عظامها من أجل الحساء. وقالت إنها لخطيئة أن تذبح حيوانًا لم تحبّه أوَّلاً.

وكانَ ذلك صحيحًا، فلقد أَحبَّت الأغنام وبادلتْها الأغنامُ الحُبَّ في المقابل.

أخبرتني أمِّي ذات مرة: «إنَّها لحقيقةٌ مُحزِنة عن الحبِّ الحقيقي. تحبُّني الأغنام حبًّا جمًّا، ولهذا السبب أنا قادرةٌ على التسبُّب لها في الألم. فالحبُّ هو السبيل الأقل قدرة على المقاومة، أفهمتِ عليَّ؟ يتطلَّب الأمر كثيرًا من المجهود والعناء لإيذاء شخصٍ لا يثق بك، أو يخاف منك. أو يكرهك. بينما الحبُّ يشرعُ الأبواب على مصاريعها، ويُفسِحُ الطريق لكلِّ صنوف الرُّعب والفظائع بالدخول. لذلك لا تَجفلُ الأغنام مني عندما آتيها بشيءٍ مزعج». تَوَقّفَتْ عن الكلام لدقيقة، ثمَّ أخذَت يدي بينَ يديها، واستحالَ وجهُها جادًّا وَرَصينًا: «الأمر نفسهُ ينطبقُ عليكِ. سوفَ تفهمين كلامي هذا عندما تكبرين. سوفَ تعلمين أنَّكِ أكثر أمانًا بالقُرب من الأشخاص الذين لا تثقين بهم ولا تُحبّينهم. إنَّ حارسَكِ في الأعلى، أتفهمينني؟ كلّما أحببتِ شخصًا أكثر، باتَ أخطرَ عليكِ. وكلّما أحببتِ شخصًا أكثر، كنتِ أكثر استعدادًا لإبراز حنجرتكِ له».

في حينها، ظننتُ أنَّ كلامها حكيم. أما الآنَ فأنا أفكرُ على نحوٍ مختلف.

دخلتُ إلى الحظيرة وجثوتُ بجوار النعاج. نفختُ في وجوهها. وفركتُ خدودها. أطعمتها من يديّ. تحدّثتُ بهدوء ولطف، كانت كلماتي مُفعمة بالحب. مثل أمّي تمامًا. شيئًا فشيئًا بدأت تَطمئنّ وتَسترخي. تنهّدت كُبراهن قليلاً، وهي نعجةٌ تُدعى نيكس، وجَثَت على قوائمها إلى جانبي، ثمّ أراحت ذقنها على ركبتي، وهي تئنُّ فوقَ مفاصلها المُتعَبة. كانَ حليبها في الآونة الأخيرة آخذًا في التضاؤل، وقد بدأت تكتسح جسدها بُقعٌ جرداء. وما كانت لتعيش طويلاً بعد هذا. وضعتُ ذراعي حولَ رقبتها، وكانَ صوفها دَبِقًا من دُهن الصوف[2] ذي الرائحة الكريهة. كنتُ في حاجة إلى استحمام بعد ذلك بالتأكيد، لكني لم أبالِ بالأمر. حاولتُ إبطاء تنفّسي، وبعد قليل فعلت نيكس الشيء نفسه، وَغدَت أكثر استرخاء. سرعان ما حَذَت النَّعجتانِ الأُخريان حذوها.

بعد عدّة محاولات، أفلحتُ أخيرًا في اقتيادِ ثلاثتها إلى حاويات طعامها. قَضَمت نيكس بضع قضمات حذرة، بينما تَشمّمت الأخريان العلف. اتّسعت مناخرها. وما زالت أحداقها تتقلّب تُجاه المنزل. كانت النعاج قد بدأت لِتوّها في المضغ عندما انفتحَ الباب الزجاجي الخلفي مُصدِرًا صَريفًا عاليًا. ترنّحت أمّي والكُركيّ في الفناء وكأنهما في حالة سُكر، مع أنّ أمي لم تكن تشرب الكحول. كانت ذراعاها مطوّقتين جسد الكُركيّ، وعنقهُ الطويلة متّكئة على كتفيها. فتحت فمها على اتساعه وضحكت، فجلجلَ صوتها جلجلةً في هدوء الليل. نَخرَ الكركيّ وقهقه مثلَ رجل.

ثَغَت النعاج وأنَّت أنينًا حزينًا. ثمّ أحجَمَت عن عَلَفها، وابتعدت عن المنزل. انكفَأتْ عن أمي بالرغم من حبّها لها. وأخذت تهتز وتخبط الأرض بأقدامها.

خاطَبَتْ أمي الكُركيّ: دعني أريكَ ما صنعتهُ من أجلك يا حبيبي. دعني أريكَ كلّ ما هو جميل.

اختلجتْ النعاج واضطربت. استحوذَ على نيكس القلق والاهتياج. وتقيّأت بيفرلي على الأرض. أعوَلَت الرّيح في الحقولِ الخاوية. والتمَعَت النجوم في السّماء التماعًا. بقيتُ قريبة من النعاج، محاولةً تهدئتها بحضوري المُتماسك.

سألتُ: ماذا حلّ بك؟

فأجابت نيكس، وقد جَحَظت عيناها: مااء!

وشاهدتُ كيفَ مَضَت أمي رِفقة الكركي عبرَ بابِ مُحتَرفها، ثمّ أغلقاهُ من خلفهما بِصفقةٍ مدوّية. واعتراني ذهولٌ. بينما تَوالَت من الداخلِ ضحكات أمي المكتومة. خَبَطَت نيكس على الأرض بقدميها. فحككتُ عُنقها امتنانًا لمشاعرها.

قلتُ للنعجة: أجل، لم يَرُق لي أنا أيضًا.

ألبستُها قلنسواتها، وفركتُ أنوفها، وَلَثمتُ كلّ نعجة مُتمنّية لها ليلةً سعيدة.

(1) الدرون، Drone: طائرة مُسيّرة بلا طيار. [كلُّ الهوامش والإيضاحات في هذا النصِّ مِن إعداد المترجِمة].

(2) دُهن صوف الأغنام، اللانولين، Lanolin: مادة دهنية صفراء تفرزها الغدد الدهنية الموجودة في جلود الحيوانات ذوات الصوف، تعمل على ترطيب جلود الماشية كالأغنام، وبمثابة عازل ضد الماء وحرارة الجو الخارجية. يُستخدم اللانولين في مستحضرات التجميل، كما أن لهُ استخدامات طبية وصناعية أخرى.

٣

كانَ منزلنا على تخوم البلدة. وهو الأخير من منازل المزارع العتيقة، والوحيد الذي لم يهدمهُ التكَتُّل(3) الزراعيُّ عندما اشتروا مزرعتنا وبقيّة المزارع الأخرى في المنطقة. وكان ثمّة سياج كهربائي يفصل فناءنا عن الحقول أُحادية المحصول على الجانب الآخر. ذُرَةٌ مُستنسَخةٌ في كلّ اتجاه، ممتدة حتى خطّ الأفق. أثناء الصيف، تَضجُّ الحقول بالهَسهسةِ والهَمهمةِ في كلّ يوم. هممةُ الطائرات المُسيّرة، وهسيسُ الذُّرة العالي المدهش وهي تنمو. في بعض الأحيان كانَ العالم بأسرهِ يهدرُ ويدمدمُ بالصوت المنبعث من المحركات الهائلة لتلك الجرّارات ذاتيّة القيادة، والحصّادات ذات التحكّم عن بُعد. لم يكن مسموحًا لنا أن تطأ أقدامنا تلك الحقول، أما أطفال البلدة ممَّن خالفوا القواعد فوجدوا أنفسهم في نهاية المطاف مُصوَّرين بِطائرات الحراسة التابعة للشركة الجامعة، المُجهَّزة بأحدث برامج التعرّف على الوجه، وأُرسِلَت رسائلُ صارمة إلى عائلاتهم، مشتملةً على إنذارٍ أوّلاً ثمّ غرامة مالية كبيرة. تموضعتْ بلدتنا فوقَ الجروف التي لم تتعرّض للتجمّد والانجراف الجليدي، مباشرةً، تنحدرُ متَّصلةً بالسّهول المُتشكّلة من الطّمي الجليدي القديم، بهكتارات وهكتارات من الأراضي الخصبة والمنبسطة، والتي تولّى إدارتها عن بُعد شخصٌ اسمهُ هوراس، حيثُ اضطلعَ بعمليّة الإشراف على المزارع بأكملها بواسطة غرفة اكتظّت بأجهزة الكمبيوتر وآلات عرض البيانات وقراءتها (وكانَ أيضًا يُسرِفُ في الشُّرب أيّام السبت). لم يكن مُزارعًا، بل خبيرًا تِقنيًّا. لم يعد أحد مزارعًا على الإطلاق. وما عاد أحدٌ يلمسُ التُّراب أبدًا. ولم يكن أحدٌ يسير عبر الصفوف الزراعية الممتدة إلى ما لا نهاية، وأصابعهم تُحدِثُ حَفيفًا على طول الأوراق الخُضرِ الداكنة. لم يكن مسموحًا لأحد، لا نحنُ ولا الغرباء ولا الحيوانات بالاقتراب من المزارع. حتى الطيور لم يُسمحْ لها بذلك. في كلّ يوم كانت الطائرات المُسيّرَة تتحرك جيئةً وذهابًا، غدوًّا ورواحًا، تحرسُ عالمًا مصنوعًا من أجل الذُّرةِ فقط.

ثَمَّ زمنٌ كانَ فيه كلُّ شخصٍ في المنطقة مزارعًا، أو متزوّجًا بمُزَارِع، أو يتعامل مع مزارعين، أو يعمل لصالحهم. الأطفال في البلدة، مثلي ومثل مايكل، كانوا أحفاد مزارعين أو أبناء أحفادهم، اشتُرِيَ كدحُ عائلاتنا وإرثها منذ زمنٍ بعيد، أو رُهِنَ، أو ضاعَ. ما مِن شخصٍ يمتلك تلك الأرض. فيما خلا التكَتُّل الزراعيّ، ولكن هذا ليس شخصًا في الواقع، بغض النظر عمّا ينصُّ عليه القانون. كانَ التكتّل الزراعي، ولا يزال، ملكَ المساهمين الذين يعيشون جميعًا بعيدًا، بعيدًا جدًّا. معظمهم لم يلمحوا هذا المكان قطّ، وأشكُّ في أنهم سوفَ يرونه أصلاً.

لا أقول قولي هذا لإلقاء الملامة عليهم، فبعد كلّ شيء، العالم يتغيّر.

كانَ منزلنا مائلاً وعشوائيًّا على غرار معظم منازل المَزارِع في تلك الأيام التي بُنيَت يدويًّا، وأُلحِقَت بها التّوابع والتّحسينات كيفما اتّفق وفقًا لاحتياجِ العائلة. لستُ متأكدة مَن مِن

أسلافي بنى الهيكل الأساسي. كلّ ما أعلمهُ أنهُ كانت هناك صورةٌ فوتوغرافية لجدّي، وهو صبيٌّ صغير، حاملاً دلوًا من الأداوت، لأبيه وجدّهِ، وَهُما يُشيِّدان القسم الأحدث من المنزل. لم ألتقِ جدّي أبدًا، أو أحدًا من الرجال الذين سبقوه. سوى أنّي رأيتُ أشكالهم، فقد كانَ هناك صفٌّ طويلٌ من الصور الفوتوغرافية المؤطّرة لرجالٍ ذوي سحناتٍ مُتجَهّمة يُحدّقون من جدار الرَّدهة الخلفية المؤدّية إلى العلّية. لطالما تجنّبتُ تلك الرَّدهة، ما أمكنني. لم يكن مزارعو عائلتي رجالاً سعداء.

عندما كنتُ صغيرة، كانت والدتي تُخبرني بأن والدها رجلٌ قاس صارم، منحدر من سلالة طويلة من الرجال المتشدّدين. وعندما تقول هذا تغدو تعابير وجهها خاوية ومُبهَمة، ووجنتاها، اللتان عادةً تكونان مشدودتين ومُصطَبغتين بِحُمرةِ الحيوية والحبّ وشعلة الإبداع، تغدوان باهتتين ومُرتخيَتين. كانت هذه ظاهرة مؤقتة، وقد أقنعتُ نفسي لمدّة طويلة بأنني كنتُ أتخيّل هذا التغيير ليس إلَّا. بدت أمي في جميع جوانب الحياة شخصًا نَهِمًا متعطّشًا، ومفعَمًا بالفضول والشّغف. زوبعة من الابتكار والتكوين والحركة. وكان الهمود وانعدام الحماسة الذي يغزو وجهها من حينٍ إلى آخر يبدو متكلّفًا وغير طبيعيّ ومُستبعدًا جدًّا، بحيثُ كانَ من السهل القولُ لنفسي إنه من غير الممكن حدوثه إطلاقًا.

سألتها ذات مرة: «ما الذي جعلَ جدّي رجُلاً قاسيًا؟ كيف آلَ إلى مآلهِ ذاك؟». أعتقدُ أني كنتُ في التاسعة من عمري. كنتُ جالسة معها في مُحترَفها بينما كانت ترسمُ صورة تلو الأخرى من أجل منسوجٍ جدراي جديد سوفَ يبدأ بالتشكّل قريبًا على نولها. عندما انتهت، رفعت كلّ واحدة من رسومها إلى الضوء، وحدَّقتْ في التفاصيلِ بعبوس، قبل أن تثنيها في يديها، وتتركَ كل واحدة تسقطُ على الأرض. ثم تشرع في رسمٍ آخر، وآخر، ومزاجها السَّيِّئ يلتفُّ حولَ جسدها كالكَفن. لقد أدركتُ أن الصور التي رسمتها كانت تجعلها تعيسة، ولقد أشعرني هذا الإدراك بعدم الارتياح لأسباب لم أتمكن من التعبير عنها أو معالجتها. كل ما عرفتهُ هو أن تجهّم أمي لم يعجبني كثيرًا.

كانَ لديّ مكانٌ مريحٌ للجلوس في الرّكن الذي سوّتهُ أمّي وجهّزتهُ بالوسائد والبطّانيات وبِسجّادة ناعمة. وقد أنشأت أيضًا رفًّا من أجل كتبي. اتكأتُ على الوسائد المزدانة بخليطٍ متنوّع من الزهور، والطيور ذات الألوان الزّاهية التي خاطتها أمي أو طرّزتها بِتأنٍّ وعناية، جميعها في طبقاتٍ ذات تنافرٍ طفيف في الألوان والملمس. حاولتُ مطالعة كتابي بيدٍ واحدة، وحلِّ لُغز «مُكعب روبيك» (4) باليد الثانية في الوقت ذاته. ولم أكن أقوم بأيّ منهما على نحو جيد.

لا أعلم لمَ خطرَ عليّ أن أسأل. ربما كانَ حلمًا مزعجًا في الليلة الفائتة. أو أنّ منعطفَ الحديث هو ما أثار فضولي. بعدما سألتها مباشرة لاحظتُ كيف رفعت أمي كتفيها غير عارفة بم تُجيب. ثمّ أشاحت بوجهها عني، مُظهرة طول رقبتها النحيلة.

وأتذكر أن مايكل كانَ رضيعًا وسرعان ما ينام في مهدهِ في الرّكن. ومن حينٍ إلى آخر يشخرُ أو يئنُّ في منامهِ. في حينها كانَ والدي لا يزال حيًّا، ولكن لمدة قصيرة فقط. كانت غرفة مرضهِ في منزلنا تضجُّ بِطنين الآلات التي تُراقبُ تَنفُّسه، والآلات التي تزوّدهُ بالأُكسجين، والآلات التي تمدّهُ بالدواء. وفي كلّ صباح كانت تُعرّج علينا ممرّضة رعاية المحتضرين لفحصِ جسد أبي، ومتابعة حالته مع العائلة.

رَفَضَتْ أمي معرفة اسمها.

في المنزل كانت ثلاثُ صور لجدّي؛ إحداها صورة لهُ وهو صبيٌّ مُعلّقة في الحَمّام؛ وصورة يوم زفافهِ مُعلّقة في غرفة المعيشة، يظهرُ فيها جادًّا مقطّب الوجه واقفًا إلى جانب فتاة جميلة في نصف عمره؛ وكانت الصورة الثالثة مُعلَّقة في الرَّدهة الخلفية، إلى جوار رتلٍ طويل مِن أسلافهِ من الرجال. في صورته الموضوعة في الرَّدهة الخلفيةِ، بدا مجرّد خيال متقزّمٍ أمام المزرعة المتعاظمة والسّماء غير المتناهية. حتى في ذلك الوقت، وبالرغم من صِغر قدّهِ، فقد اتّخذَ وضعيّة فَظّة. الكتفان عدوانيتان. اليدان قبضتان مشدودتان. لم أكن أحبّ النظر إليه.

الرّجل الوحيد الذي عرفتهُ حقّ المعرفة آنئذٍ (وربّما أبدًا) هو أبي. كانَ شخصًا سمحًا عطوفًا رقيق الحاشية. قد صَيّرهُ المرضُ أكثر رقّةً ودَماثة. وما كانَ عليّ إيضاح هذا. إذ كانَ جليًّا. فكلّ ما يخصّ أبي كانَ ليّنًا لطيفًا، ابتداءً من صوتهِ ونعومة يديهِ وصولاً إلى طريقته في التعبير والكلام. حتى الآن، ذكرياتي عنهُ مُرهفة كَرمشٍ على الخَدّ، أو كَشُعيرةٍ مِن شجرة حورٍ قُطني(5)، تستقرُّ هُنيهةً على الجلد.

وَصَفَت أمي والدها بأنه رجلٌ قاسٍ، لكني بصراحة لم أستطع فهم معنى ذلك. ولهذا السبب سألتها. وانتظرتُ منها تفسير مقالها. انتظرتُ زمنًا طويلاً.

في خاتمة المطاف، رفعت كتفيها غير عارفة. «يقولون إنّ الزراعة جعلت الرجالَ قُساةً، عندما كانَ الناس يزرعون. لكن ربّما هذا ليس صحيحًا. وما كانَ صحيحًا قطُّ. فأبي كانَ قاسيًا عندما عَمِلَ في المزرعة، وقاسيًا عندما خسرَ المزرعة، وعلى الأغلب كانَ قاسيًا في أي نوعٍ من أنواع الحياة. كَرِه الزراعة إلى أن سَلَبهُ البنكُ مزرعتهُ، عندئذٍ حَزنَ عليها حُزنًا شديداً. عاقرَ الخمر. وتملّكتهُ نوبات الغضب. ظلّ يحاربُ لاستعادة مزرعته حتَّى لم يتبقّ لديه قدرة على المُحاربة، وبعدئذٍ حاربَ الجميع. بِمَن فيهم أنا. على الأخصّ أنا».

صمتُّ لدقيقةٍ. لم يكن ذاك الجواب الذي تطلّعتُ إليه. كنتُ، مثلما ذكرتُ آنفًا، في التاسعة. إلَّا أنّ أمي كانت تتحدَّث إليّ في الغالب كما لو أنني نِدٌّ لها ولستُ طفلة، وتوقَعَت مني فَهمَ أمورٍ لم يكن لدي عنها تصوّر بعد. حتى أني لم أعرف حينها أن أستاء منها بسبب هذا التصرف. وعوضًا عن ذلك، غيّرتُ الموضوع.

قلتُ: «أبي لطيف»، لأنها الحقيقة. وكانت تلك سمة أبي المفضّلة بالنسبة إليَّ. لم يكن قد فارق فراشه منذ أسابيع، ولن يفارقه أبدًا، كما تبيّنَ لنا لاحقًا، لكني لم أكن أعرف بهذا بعدُ. وحتى لو كنتُ أعلم بأنهُ لن ينهض من فراشه مرةً أخرى، فَلستُ متيقنة من أن ذلك سوفَ يُشكّلُ فارقًا في كيفية فهمي للعالم آنذاك. كلُّ ما علمتهُ أني أحببتُ قضاء الوقت معه، تكتنفنا الألحفة المشدودة بالوسائد تلك التي خاطتها أمي. أحببتُ رائحتهُ المالحة المشبَعة بالرطوبة، والطريقة التي تغضّنت بها رؤوس أصابعه كما لو أنه أمضى يومهُ بأكمله في الماء. أحببتُ خصلات شعره المتساقطة على الوسائد، والطريقة التي تدلّى بها جلده المتهدّل من جسده مثلَ ستائر قُطنية في نسيمِ الصيف.

قالت أمي: «أعتقدُ أنهُ كذلك». ثم نظرت إلى يديها في حجرها. «لطيف جدًّا». سكتتْ للحظة، راقبتُ وجهها، كانَ خاليًا من التعبير. ثمَّ استطرَدَت بهدوء: «في المزرعة، تطيرُ الأمهات بعيدًا كالطيور المهاجرة، ويموت الآباء في عزّ الشباب. لهذا السبب للمزارعين بنات. للنهوض بالمهمة والحفاظ على سير الأمور، إلى أن يحين الوقت، وتنمو لهن أجنحة بدورهن. ويُحلّقن بعيدًا عبرَ السَّماء».

وقفتُ. وسوَّت أمي جلستها في مقعدها، مدَّدت عمودَها الفقري، وتمطّط عنقها الطويل على نحوِ جذّاب تجاه النافذة، وابتسمت ابتسامة غامضة وهي تنظرُ إلى السّماء. كانَ وجهها طافحًا بالحزن، وتضايقتُ لرؤيته حزينًا هكذا. كوّرت يدها أمام فمها. مشيتُ إلى مكتبها، وأمعنتُ النظر فيما كانت ترسمهُ. كانت لديها عدة نُسخٍ معدّلةٍ من نفس الفكرة، وهي صورة امرأة واقفة في حقل وتنظرُ إلى الأعلى. وقد أمسكت بيدِ طفلٍ، وحملت رضيعًا على ثنيةِ ذراعها الأخرى. كانت واقفة ضِمن ما تبدّى مثل كومة من أوراق الشّجر، ولكن بعد تدقيق النظر كانت في الواقع ريشًا. وعلى وجه المرأة، رسمت والدتي علامتي «X» مُطرَّزتين، حيثُ يجب أن تكون العينان. رفعتُ كتفي غير مكترثة للصورة، وحوَّلتُ بصري عنها.

قلتُ: «ولكن أنتِ لا يا أمي، لن تطيري بعيدًا». خالجني شعورٌ غريب ومزعجٌ لم أستطع تَبيّنه. كما لو أنّ جلدي كانَ مشدودًا للغاية، والهواء قد نفدَ من رئتيَّ. وكأنّ عضلاتي وَخَزتها آلاف الأشواك الدقيقة فجأة. «لن تتركينا، أليس كذلك؟ لأنهُ يجب عليكِ الاعتناء بنا، وبأبي. وعلى أيّ حال، لم تعد هناك مزرعة. المزرعة الموجودة لا تخصّنا، إنها تقع على الطرف الآخر من السياج الفاصل، وهي ملك شخص آخر الآن. من أينَ ستطيرين أصلاً؟».

عبسَ وجهها. لم أفهم لماذا. تطلَّعتُ إلى رُسُومها في الخلف، وقالت دونَ أن ترفع بصرها: «أعتقدُ أنكِ محقّة. لا توجد مزرعة إطلاقًا». ثمَّ استأنَفت عملها.

عَرَتني الكوابيس بعدئذٍ، رأيتُ أمي في منامي واقفةً في الحقول التي لا نهاية لها وراء فناء منزلنا، حيثُ لم يكن مسموحًا لأحد بالذهاب، وكانت الأجنحة تنبثقُ من ظهرها الدّامي،

والرّيش يخترقُ جلدها مُخشخِشًا ويخرجُ منهُ، وكانَ فمها منقارًا فتَحَتهُ في البداية كي تُطلقَ صرخةً، فَتنهيدةً، ثمّ أطلقت عويلاً حادًّا وهي ترتفعُ صوبَ السّماء وتُحلّقُ بعيدًا.

توفّي والدي بعد ذلك بِشهرٍ، وكنتُ خائفةً من البقاء وحيدةً.

(3) التكتّل، Conglomerate: تكتّل أو تجمّع شركات (شركة أمٌّ وشركات تابعة)، هو مصطلح في علم الاقتصاد يعبّر عن اندماج شركتين أو أكثر لا صلة لنشاط إحداهما بالأخرى، وهو مصطلح مشابه للشركة القابضة، ولكن في «التكتّل» تتكون الشركة من مجموعة شركات ذوات صناعات وأنشطة مختلفة.

(4) مُكعب روبيك: لغزٌ ميكانيكيٌّ ثلاثيّ الأبعاد، اخترعه النحات وأستاذ العمارة المجري «إرنو روبيك» عام ١٩٧٤، وسُميّ المكعب بالأصل المكعب السّحري.

(5) شجرة حور قطني، Cottonwood: نوعٌ من أشجار الحور تنمو في أمريكا الشمالية، تنتجُ بذورًا لها ألياف بِيضٌ ناعمةٌ تشبه القطن.

٤

جاء مايكل إلى غرفتي، ليلةَ قدوم الكُركيّ إلى منزلنا، بعدما وضعتُهُ في فراشهِ بوقتٍ طويل.

أنا أيضًا كانَ يُفترضُ بي النوم، وعوضًا عن ذلك قعدتُ إلى مكتبي، ورحتُ أرسمُ مجدّدًا صورًا لوالدي. رسمتهُ جالسًا إلى مائدة العشاء، أو وهو ينكشُ في الحديقة، أو يتسلَّق شجرة. كانت لديّ رسوم لأبي وهو يُصلِح سياجًا، أو يقود شاحنة، أو حاملاً مايكل على كتفيه، أو وهو يقوم بأيٍّ من المهام التي تفوقُ الحَصر والتي لم أرهُ مرة واحدة في حياتي يقوم بها. كانت لديَّ صناديق من تلك الرسوم، ولم أُرِها لأمّي مطلقًا.

فتحَ مايكل الباب بِصمت، دونَ همسٍ يُذكَر. لا أعلم كم من الوقت مكثَ هناك، مُكتفيًا بالتحديق إليَّ، ولكن عندما استدرتُ لأتمطّط، أفزعني حتى كدتُ أقفزُ من مكاني.

قال مايكل: إششش.

سألتهُ: ما الذي تفعله هنا؟ ونظرتُ إلى الساعة. كانت الواحدة صباحًا. ارتطمَ لوحُ السرير الأمامي في غرفة أمي بالحائط. وفكرتُ، لا ينبغي لمايكل سماع هذا. حاولتُ حثّهُ على العودة إلى الفراش. وسألتهُ: ما الذي أتى بك إلى غرفتي؟

أجاب مايكل، وقد اغرورقت عيناهُ الواسعتان البُنّيتان بالدموع: ثمّة أمر سيء يحدث.

قلتُ: كلّ شيء على ما يُرام وطبيعي. إن أمي فقط... وجربت العثور على جملة قد تكون مُلائمة لطفلٍ في السادسة. قطّبتُ وواصلتُ الكلام- أمي لديها... أصدقاء مقربون أحيانًا... ولكن ليس لوقتٍ طويل. صداقة لبعض الوقت فقط. ولا يتعين عليك أن تحبهم، لأنهم يذهبون ويجدون لأنفسهم... أصدقاء آخرين. لم يَسِر حديثي على ما يُرام. شعرتُ أن وجنتي ساخنتان وحمراوان. اختلجَ صوتي وأنا أتابع الكلام- أنت تعلم. إنهم، وبصفة منتظمة، يجدون أصدقاء جددًا لاحقًا. بعض الأصدقاء هم على هذه الشاكلة.

هزَّ مايكل رأسه، ونظرَ مرة أخرى نحو الممرّ. صرخت أمي صرخة خافتة. وَنخرَ الكركي نخرة تبدّى فيها أشبهَ بِرجلٍ إلى حدٍّ كبير. «مُقرِّز»، فكَّرتُ.

قال مايكل، مع حازوقة طفيفة: إنهُ يؤذيها!

هزِزتُ رأسي بالنفي، وعندي رغبة في خنقِ والدتي. ما كانت يومًا متحفّظة بالكامل عندما يكون لديها رفيق فراش جديد، إلَّا أن هذا الأمر قد تخطّى الحدود حتى بالنسبة إليها. كنتُ

حينها في الخامسة عشرة فقط. وما كانَ علي أن أشرح مفهوم ممارسة الجنس العابر لأخي الصغير. تلك مهمّة أمي.

ركعتُ جوار مايكل وعانقتهُ بشدّة.

قلتُ: اسمعني! أنا أفهمكَ. هذه الأشياء مُربكة للغاية. ولكني أعدكَ بأنَّ أمي هي أفضل شخص في العالم بأسرهِ بالاعتناء بنفسها. لا أحد يؤذي أحدًا. إنهما فقط... ثمّ انبعثت من غرفة أمي آهة أخرى مُتّقدة. فأوصدتُ باب غرفة نومي حانقةً متورّدة الخدّين - أتدري ماذا يا صديقي؟ فقط لا تشغل بالك بالأمر. ما رأيك بالنوم في غرفتي الليلة؟ ستبيت هنا الليل بِطولهِ، ولسوفَ يكون ذلك ممتعًا. وهذا ما فعلناه، ومايكل مدسوسًا في جسدي المتكوّر، مثل لؤلؤة صغيرة في صدفةِ محارة.

تلكَ الليلة حلمتُ بأنَّ مايكل سمكة في بِركة، يَسبحُ بِاهتياج في التيار هربًا مِن منقارٍ قاطعٍ كما النَّصْل يدفعهُ دونَ هوادة، وفي اللحظة الأخيرة لم يجد مايكل مكانًا للاختباء. وأدركَ طرف المنقار المنحنى الصغير في بطنه. صحوتُ على صراخٍ مكتوم.

همهمَ مايكل مُتشَكّيًا: إنكِ تُعانقينني بِشدّة. وكانَ مُحِقًّا. كانت ذراعاي مُلتفّتين حولَ جسده مثل المَلزمة.

قلتُ لهُ وأنا أُفلتهُ: آسفة يا صديقي. كنّا مُبلّلين بالعرق، بِعرقي على الأغلب. ودقات قلبي لا تزال مُتسارعة. همستُ له: لنعاود النوم.

أَخلدَ إلى النوم؛ وبقيتُ مستيقظة. لم أُرِد رؤية ذلك الحلم مرة أخرى. وفي غضون لحظات كان مايكل يشخر، بينما نهضتُ للوقوف وراء نافذتي، حيثُ حاولتُ تهدئة روعي. ضغطتُ جبهتي على الزجاج، وضيّقتُ جفنيَّ. في الخارج كانَ رجلٌ عارٍ يتسلّل على امتداد حافة البركة، يظهر من بين الظلال ويختفي، قدماهُ الحافيتان تخطوان خطوات خفيفة على العُشب الذي مسّهُ الصقيع.

«ليسَ واحدًا آخر»! فكرتُ بمرارة وانتقادٍ لاذع، وأنا أهزُّ رأسي. «ألم يسمع هؤلاء الناس بِقضمة الصقيع؟» كانت ذراعه موضوعة في حمّالة. التمعَ ضياء القمر على جلده العاري. جثا على حافة البركة، ومدّ يديه عبر قشرة الجليد الهشّة المتكوّنة حديثًا في المياة الباردة المظلمة، وطَفِقَ يُقلّبُ فيها، وكأنّهُ يبحثُ عن شيء ما في القاع الموحل.

طَرَفتُ ونظرتُ إلى ساعتي، كانت تتحوّل لتوِّها من الساعة ٢:٥٩ إلى ٣:٠٠. نظرتُ مجدّدًا إلى الشخص في الفناء. هززتُ رأسي لكي أُصفّي ذهني. ونظرتُ إليه كَرّة أخرى. لقد كانَ الكُركيّ بلا أدنى شكّ. حرّكَ منقاره في الماء وأسقطَ شيئًا صغيرًا في حلقهِ، ضفدعًا ربّما، أو سمكةً بالغة الصغر. وسَرَت في جسمي قشعريرة.

كانَ الوقت ليلاً، ومتأخرًا جدًّا للتفكير بوضوح. ابتعدتُ عن النافذة، وضغطتُ بيديّ على وجهي، لتنشيط(6) حواسّي. أصغيتُ إلى صوت تَنفُّسي لدقيقة.

«سوفَ يرحلُ سريعًا»، همستُ لنفسي، كما لو أنَّ قولها بصوتٍ عالٍ سيجعل ذلك يحدث على نحوٍ أسرع. ثمّ عدتُ إلى السرير بجوار مايكل.

(6) تُسمّى أيضًا بآلية التأريض، Grounding Senses: وهي آلية ترتكز على استخدام الحواس الخمس بهدف الانفصال عن الألم والتحكم بالذكريات المؤلمة أو المشاعر الصادمة والتعامل معها، وللتهدئة من نوبات القلق ولحظات الانفصال عن الواقع.

٥

البلدة التي نشأتُ فيها هي واحدة من تلك الأماكن في الغرب الأوسط التي لا تزال في الغالب تبدو مثلما كانت عليه قبل مئة عام، ولا يعود ذلك إلى جهود شخص ما بعينه، ولكن بالأحرى لأنه لم يكن هناك سبب للنموِّ أو التغيير. عوضًا عن ذلك، منذُ تأسيسها فصاعدًا، ظلّت البلدة ثابتة في مكانها، مثلَ فراشة مُثبَّتة على لوح، ومتروكة تحت الزجاج زمنًا طويلاً حتى استحالت أخيرًا مجرّدَ قشرة، وغبارًا متداعيًا. وكانَ هناك نُزُلان تاريخيّان يُقدِّمان الخدمات إلى السّياح الذين يَفِدون كلّ ربيع للاستمتاع بمشاهدة الأزهار التي تُزيّن أشجار التفاح البري والكرز والخوخ لدينا، ثمَّ يعودون في فصل الخريف لإظهار إجلالهم وتعظيمهم لأشجار الحور والقيقب المعمِّرة، بعروضها السنوية ذات الألوان الزاهية. ولقد أُعجِبوا بواجهات المحالّ السّاحرة ومقصورة الحديقة الغريبة والجميلة في ساحة البلدة البديعة، ولم يلاحظوا أبدًا الطِّلاء المتقشِّر أو الأسقف المنخَسِفة، أو قِطع الطّوب المفقودة في الممرّات. قادوا سيّاراتهم بسرعة فائقة على الطرق المتعرّجة عبرَ المنحدرات. ومرّة في كلّ عام، كانَ المدراء المُتهَندمون من «التكَتُّل الزراعي» يَحلّون في البلدة، ويُقيمونَ في نُزُليها أثناء اجتماعات الإدارة الخاصة بهم، حيثُ يُسرِّحونَ النَّظرَ في الحقول المزروعة بمحصولٍ واحد، ويتظاهرون بأنهم ما زالوا مرتبطين بالأرض. وكانوا يتخيّلونَ أنفسهم مرتدين مَباذِل المزارعين، والأحذية البالية، وقبّعات واسعة الحافات. وتخيّلوا رِقابًا مسفوعةً بالشمس، وترابًا تحت الأظافر، ونعيقَ غربان تحومُ فوقَ الحقول. وبعد ذلك كانوا يُتخِمونَ أنفسهم بالبيرة المحلّية وبالأجبان المحلّية، ثمّ يُغدِقونَ على أنفسهم بأطباقٍ باذخة زُعِمَ أنها مِن نِتاجِ حدائق محلّية، مع العلم، أنهُ في الحقيقة، كثير من المنتجات قد شُحِنَت ببساطة من البيوت البلاستيكية في المدينة. وغالبًا، البيرة كذلك.

حضر تلك الاجتماعات كثير من المديرين والتنفيذيّين، جميعهم بأحذيةٍ لمّاعة وعروض تقديمية «PowerPoints»، وقهقهات مُجلجِلة. وقد استهلكوا كمية مذهلة من الطعام. كانَ ذلك يصبُّ في مصلحة العمل في البلدة، إذا ما جاء الغرباء الأثرياء بصورة منتظمة. لقد كانوا متعطّشين إلى تجارب أصيلة وخارقة للعادة.

اشتُهِرت أمي آنئذ بِكثيرٍ من الأشياء. فَتّها، على سبيل المثال. نَسَجت منسوجات جدارية مزدانة بالرسوم والصور باستخدام الألياف المجمّعة والمواد الموجودة (إلى جانب الصوف من نعجاتنا الثلاث)، وطرّزتها بصورٍ وقصصٍ مُثيرة للعجب ومتعددة الأبعاد. كانت منسوجات أمي ضخمة وفاتنة. حتى أنا تمكنتُ من رؤية ذلك. جاءَ هواة التجميع من جميع الأنحاء لرؤية ما صنعتهُ أمي. في كلّ مرة، تَسمّروا في وقفتهم، مأخوذين بالدّهشة، فاغري الأفواه، وأيديهم على قلوبهم. في إحدى المرّات، رأيتُ امرأة صَدَحت بالغناء فجأة. وفي مناسبة أخرى، أخرجَ رجلٌ هاتفه واعتذرَ من كلّ شخصٍ أخطأ في حقّه، بِمن فيهم أمي، عن الخطايا التي فكرَ فيها لكنهُ لم يقترفها بعد. وفي كثير من الأحيان، شاهدتُ هواة جمع

الأشياء يتهاوونَ على رُكَبهم وينتحبون. تعاملت أمي مع كلّ هذه الحالات بهدوء ورحابة صدر. لطالما عَثرَت على طرقٍ لجعل مُعجبيها يشعرون بحالٍ أفضل، في الدور العلوي من محترفها في الحظيرة القديمة. أحيانًا كانت تساعدهم على الشعور بالراحة والتحسن لساعات. لم أطرح أيّ أسئلة حول ذلك.

اشتُهرت أمي أيضًا بِأجبانها التي كانت تبيعها للمنشآت المحلّية، وفي كُشكها بسوق الفلاحين، وأحيانًا للبائعين في أماكن بعيدة من المدينة. صنعت دفعات صغيرة من وصفاتٍ حَرَستها بعناية، ولم تزد على حجم عمليّتها مُطلقًا. شَكّلت الأجبان دَخلاً جانبيًا وفّرَ طعامًا على مائدتنا في الفترات الفاصلة بين المبيعات الفنّية. وَصَفَت أمي أجبانها بالمحلّية، ووضعت على الملصق «محلّي ١٠٠٪»، ولكن في الحقيقة، لم يكن قد تبقى الكثير من مُزراعي إنتاج الألبان في المقاطعة –سلالة مُحتضرة، كما يُقال– وأنا متأكدة من أنهم اندثروا جميعًا الآن. وبدلاً من ذلك، اشترت الحليب بالجملة من السَّماسرة في كندا أو كاليفورنيا أو المكسيك، أو حتى في الصين -وصلَ الحليب على نحو دوريّ في براميل موحِلة– والذي عزّزتهُ غالبًا بمسحوق الحليب المجفّف، وعدّلَتهُ بحليب نعاجنا.

في إحدى المرات جادلتها بشأن أخلاقيات فعلتها هذه، إلَّا أنها لم تكترث لِكلامي. قالت لي: «ومن يهتم إن لم يكن الحليب مَحليًا مئة في المئة؟ أنا من الجيل الخامس من السكّان المحلّيين، وهذا محليّ بما فيه الكفاية لأيّ شخص. كلُّ ما يهتمُّ به الناس حقًّا هو أن الأجبان مصنوعة في حظيرة. أو بجوار حظيرة. لا أعلم فيم يهمّ ذلك. لكنه مهم».

كما عُرِفَت أمي أيضًا بإيوائها الكائنات الضّالة. الكلاب، القطط، الصقور ذات الذيل الأحمر. صغار الثعالب والأرانب، والشّارد من الماعز، وبين حينٍ وآخر، نِمسًا تائهًا. في إحدى المرّات آوت طائر دُرَّاج جميلاً متعددَ الألوان مُصابًا بجروحٍ خطيرة، وقد اتّخذَ من حجرها مُستقرًّا لهُ، مُتَنعّمًا برائحتها، مُتقلّبًا بين ذراعيها. بذلت أمي ما في وسعها لجعل الدُّرَّاج مُرتاحًا، مِن تَضميد جروح، وتقديم أطعمة شهية لقضمها، والسَّماح للطائر بإراحة رأسِهِ على صدرها. مكثَ الطائرُ ثلاثة أيام بين ذراعيْ أمي قبل أن يموت، عندئذٍ أخرجتهُ، ونتفت ريشهُ، وأزالت أحشاءه، وَطهتهُ مع البصل في الفرن. في النهاية، هي ابنة مُزارع، وما كانت كذلك لو لم تكن عَمليّة دونَ شَفقة. وعلى أيّ حال كانَ الطائر لذيذًا.

وعشّاقها أيضًا كانوا شاردين. حَدّاد من على بُعدِ مُقاطعتين، طُرِدَ من عملهِ بسبب شُرب الخمر أثناء العمل، كان بانتظار وصول صاحبهِ إلى البلدة كي يتمكنا من البحث عن عملٍ في الغرب. مُغنّية «سوبرانو»(7) تمتلكُ طبقة صوتٍ عالية، غنَّت أغانيَ من مسرحيات موسيقية في أحد النُّزلين أثناء الموسم السياحي. مُمثل شوراع تلقّى معلومات مُضلِّلة على نحو فادحٍ حول اهتمام السُّكان السّائحين وكرَمهم في فصل الصيف. متشرِّد حقيقي يحملُ وشمًا من كلّ بلدة باتَ فيها بالعراء (الحبر غطّى جسده). الطّاهية ذات العلاقات الجنسية

الكثيرة في أحد المطاعم المحلية والتي طردتها زوجتها. رجال، ونساء، وكل الذين تجاوزوا هاتين الفئتين كُليًّا، استقبلتهم أمي جميعًا، واستمتعت بهم جميعًا.

ولم يبقوا.

منذُ وفاة أبي، لم تكن أمي شخصًا ينشدُ الاستقرار. أو هكذا ظننتُ.

* * *

قبلَ قدوم الكُركيّ، ظهرَ رجلٌ في بيتنا لمدّة وجيزة. كانَ الوقتُ متأخرًا – منتصف اللَّيل، على ما أعتقد، أو الساعات الأولى من الليل – وكانَ مايكل نائمًا. خرجنا أنا وأمي لمشاهدة زخّات الشُّهب الرباعية «كوادرانتيدس»(8). كانَ ذلك في شهر يناير، والطقسُ دافئًا بصورة غريبة. العالم بأسرهِ كانَ دافئًا. أما الحقول الثلجية الواسعة وأماكن التجمّد الشديد التي تذكرتها أمي منذ صباها فقد تحوّلت إلى شتاءات تأرجحت آنئذٍ بين الرطوبة المعتدلة غير المستقرة والبرد القارس.

تألّفَ شهر يناير ذاك بالتحديد من مطرٍ خفيف بائسٍ ورياحٍ أثناء النهار، وليالٍ كانت باردةً بما يكفي لتصلّب الطّين، كلّ ليلة تصنع بلورات جليدية جديدة تنتشرُ عبر الفناء مثل النجوم. ارتدت كلٌّ منا سترة صوفية وقبّعة صوفية وتباطأت أنفاسنا أمام فمينا مثل الأشباح. كنا قد بسطنا بطّانيتنا فورًا عندما ترامى إلى أسماعنا صوت رجلٍ يئنُّ في الظلام.

قالت لي أمي، بِنبرة مقتضبة حَذِرة، وهي تقف: «ابقي هنا»، لكني لم أبقَ. لحقتُ بها وهي تتبع الصوت. وجدنا رجلاً ممدّدًا في الحظيرة، مصابًا ويتوجّع. كانَ يعاني من جروحٍ بليغة في كتفيه وفخذه اليسرى، ومن كدمات في كل جسمه تقريبًا. كانَ في ذراعه المتورمة انتفاخٌ حيثُ كُسر العظم. كما كانَ الرجل عاريًا تمامًا.

لم يبدُ عليه أنهُ مهتم لأمر البرد. بدا وكأنهُ لم يلاحظه إطلاقًا.

قال: «حسنًا»، ناظرًا إلى نفسهِ نظرةً شاملة، مع ابتسامة صغيرة متوارية في قناع الألم. «هذا مُحرِج»، ولم يأتِ بحركة للتستّر.

كانت أمي هادئة وغير منزعجة. قالت لي دون أن تحوّل نظرها إليَّ: عزيزتي، اذهبي وأحضري البطانية. ولم ترفع عينها عن الرجل.

كشفت ابتسامتهُ الخجول عن فجوتين داميتين حيثُ سِنَّاه لم تعودا في مكانهما. كان هناك ريشٌ متناثر على جسده. وريشٌ متطاير في الفناء. وكومة من الريش في حظيرة الأغنام.

تجنَّبت النعاج الاقتراب منها.

لم تنتبه أمي إلى الريش.

سألتهُ أمي: ماذا حدثَ لك؟

رفع الرجل كتفيه استهجانًا: إنه خطئي في الواقع. اصطدمتُ بإحدى طائرات الدرون اللعينة تلك في الحقل هناك. الأوغاد البغيضون. والوقحون أيضًا. لكني أعتقد أني مُستحق ما حصل لي لأنني انحرفتُ نحو تلك الحقول. أظنُّ كانَ يجدرُ بي تقدير عاقبة الأمور.

قطّبتُ بين عينيَّ. طائرات الدرون تحلّق. الغرض منها -بالإضافة إلى درء المتطفّلين بأعينها الإلكترونية وبرنامج التعرف على الوجوه المبرمجة فيها– هو إبعاد الغربان عن الذُّرة، وإرسال إشعارات عندما تكتشف أن المنَاجِذ[(9)] عَزَمت على الشّروع في حفر التربة. سوى أن الطائرات تظلّ فوق مستوى الإنسان، فهذه إحدى قواعدها. لذا لم يقصد المزرعة التي تحرسها طائرات الدرون، أليس كذلك؟ ربما قصدَ الجرارات ذاتية القيادة. سوى أنها لم تكن قيد التشغيل بعد في ذلك الوقت من السنة. طويتُ ذراعيَّ، وتعمّدتُ إظهار الارتياب على وجهي.

بينما كانَ لوالدتي ردّ فعل معاكس.

قالت: أوه، يا للرّجل المسكين! وأعانتهُ للنهوض على قدميه، ولفّتهُ بالبطانية، وتركتهُ يرمي بثقلهِ عليها وهي تساعده في دخول المنزل. مشيتُ في إثرهما، ولاحظتُ رتل الريش الذي خلّفه في أعقابه. ولم يكن لديَّ فكرة من أين أتى.

داخل المنزلِ، أمي وهي الخيَّاطةُ أبدًا، عقّمتِ الإبر، وخاطتْ جروحه. وكونها نشأت في مزرعة (ومع أب سكّير)، تعلَّمت بضعة أمور حول الدّقة اللازمة لخياطة الجلد المفتوح بِعناية، وكيفية تثبيت العظام على نحو صحيح. قدّمت إليه كأسًا كبيرة من الويسكي، وطلبت منهُ أن يُغلق عينيه ويسترخي. دفنَ وجههُ في بطنها، وشبكَ ذراعهُ السليمة حولَ ردفيها، وتمسّكَ بقوّة. قبضت على معصمه بإحكام، وثبَّتت عضلة أعلى ذراعه وسحبتها، بثقة وبسرعة. أحدَثَ العظمُ صوتًا قويًا عميقًا أثناء استقامته في الوضع الصحيح. صاحَ من الألم والتسكين، وانتحبَ في قميصها. ذهبت إلى مخزن الخشب في القبو لتصنع لوحين رقيقين من الخشب لعمل الجبيرة. غَنَّت لهُ وهي تلفُّ الضّماد حولَ ذراعه، وَصَبّت لهُ كأس ويسكي أخرى.

كانت من حولهِ طاقة وحشيّة جامحة؛ وفي عينه نظرة شهوانية بهيمية. راحَ ينظرُ إلى أمي كما لو أنها غذاء، وهو لم يأكل منذ سنوات.

تلك الليلة، عبّرَ عن امتنانهِ في غرفة أمي. اهتزَّ المنزل بأكمله. وضعتُ السمّاعة على أذنيّ، واستمعتُ إلى بثٍّ أجنبي عبر مذياع أبي القديم ذي الموجة القصيرة، لأُذكِّر نفسي بأن هناك عالمًا أَرحَب خارج فِناء والدتي.

كانت خمسة حيوانات ضالّة تعيش في منزلنا في ذلك الوقت. قطّتان وحمامة حِداد[10] مُتماثلة للشِّفاء، وزوجان مُعشّشان مِن بَطّ الغابات. في تلك الليلة قررت الحيوانات أن تتوارى عن الأنظار. وهذا ليسَ أمرًا مستهجنًا كليًّا، فالحيوانات الشّاردة تتجوّل وتتجوّل، على كلّ حال. إلَّا أنها لم تعد أبدًا. ولا حتى واحد منها. وليسَ بعدَ أن وضعتُ لها طعامها عند دَرَج مدخل البيت، وتركتُ لها نافذة مفتوحة على مصراعيها كي تَتسلّل منها. لم أرَ قطُّ ضيوفنا من الحيوانات يتصرفون بهذه الطريقة.

في اليوم التالي كانَ البيت مليئًا بالريش، وكانَ الرَّجلُ قد رَحَل. لم تكن تلك المرة الأولى التي يُغادرُ فيها أحد زوّار والدتي قبل بزوغ الشّمس. عادةً، كانت تواصلُ يومها، ولا تزال على وجنتيها حُمرةٌ من إثارة الليلة الفائتة، وتصبُّ اهتمامها على العمل الذي ينتظرها. ولكن هذه المرة مختلفة. كانت أمي باكية وساكتة. وقفت عند النافذة، أصابعها ملفوفة بالخيوط ومُنهمكة بِصُنع أشكالٍ صغيرة من العُقَد. امرأة مصنوعة من عُقَد الخيوط. تَنهّدتْ عَن كبدٍ حَرَّى. وأبقتْ ناظريها إلى السّماء. طهوتُ الفطور وغسلتُ الأطباق. حاولتُ جعلها تأكل، ولكن دون جدوى.

كَنَسَتُ الريش صامتة ووضعتهُ في كيس وأخذتهُ إلى الحظيرة ثمّ إلى مُحترفها. ولم تخرج بقية اليوم. أو الذي تلاه. أو الذي تلاه.

لمدة شهر، اشتغلت أمي بِصناعة الفنّ من الصباح حتى الليل ومن الليل حتى الصباح. لا أعتقد أنها كانت تنام. أحضرتُ لها الطعام. حاولتُ إقناعها بالدخول إلى البيت والاستحمام. وبدلاً من ذلك خَاطت وطَرّزت قصة لم أتمكن من تبيّنها، كانت الصور عشوائية جدًّا وغير مُحدّدة. سَحَبت الخيط وعقدتهُ بإحكام. لم أستطع فهم أيّ شيء.

قلتُ لها وأنا أدلّكُ كتفيها: إنها جميلة يا أمي، لا أعرف حقًّا ما موضوعها.

تفرّست أمي في منسوجتها، وفمُها يُشكّلُ كلماتٍ صامتةً ويَقوّضها، وهو أمرٌ فعلتهُ كثيرًا عندما كانت تعمل. قالت: لا بأس إن لم تفهميها. يومًا ما سوفَ تفهمينها.

- هل ستأتين؟ أنتِ في حاجة إلى النوم يا أمي. وأيضًا –لا تسيئي فهمي– ولكن رائحتك فظيعة بحق. أظنُّ آن الأوان كي تغتسلي.

ابتسمت أمي وقالت: مزيدًا من الوقت فقط يا حبيبتي. ثمّة شيء داخلي. شيء يريد أن يكون. بيد أني لم أستطع العثور عليه بعد.

بعد أربعة أيام من تلك المحادثة، سمعناها تصيحُ فرحًا في الحظيرة. كنتُ أطهو الحساء. وكانَ مايكل جالسًا إلى الطاولة. نظرَ كلّ منّا إلى الآخر، وابتسمنا. ستأتي أمي لتناول العشاء معنا. وأخيرًا. ثمّ سوفَ تنامُ في سريرها. جهّزتُ لها مكانًا على المائدة، وترقّبتُ اللحظة التي ستصلُ فيها، ويعود كلّ شيء إلى طبيعته، ويكون العالم كما ينبغي لهُ أن يكون.

فُتِحَ الباب. وحبستُ أنفاسي.

عندما خَطَت أمي إلى داخل المنزل، جَلَبت ذلك الكُركيّ معها.

(7) سوبرانو، Soprano: (كلمة مشتقة من اللاتينية وتعني الأعلى) الندي، الصادحة، هو الصوت ذو طبقة «الأوكتاف» الأعلى بين النساء في الجوقات الموسيقية والأوبرا. وعلى الرغم من وجود العديد من مغني السوبرانو من الذكور، فقد اشتُهر السوبرانو بالصوت الأنثوي عمومًا.

(8) كوادرانتيدس Quadrantids، أو شُهب الرباعيات: أول انهمار نيزكي من كلِّ عام. وابل شهابي يبلغُ ذروتهُ في بواكير يناير، ويكمن إشعاعه في كوكبة بوتس (كوكبة العوّاء).

(9) المناجِذ: جمع حيوان الخُلدُ. وهو جمع من غير لفظه كالمخاض جمع خِلفة.

(10) حَمام الحِداد، Mourning Dove: حمام الهدّال أو حمام المطر، من فصيلة طيور الحماميات ذو هديل حزين، يوجد في أمريكا الشمالية، لونه رمادي فاتح وبنّي.

٦

في صباح اليوم التالي، رأيتُ والدتي تتناول الإفطار، وهو أمرٌ غير معتاد، لأنها كانت تنام إجمالاً حتى الظهيرة تقريبًا. كانَ الدمُ يتسرّب من ظَهرِ قميصها. الشيء الذي كانَ أكثر غرابة.

سألتها: ماذا حصل؟

رفعت كتفيها بلا مبالاة: أحيانًا قد يتعرّض المرء لخدشٍ ما. وتَحوّلَ بصرها نحو النافذة، حيث سُلِّط الضوء على الكُركيّ، وهو يمشي على العشب مِشية الخُيلاء. وابتسَمَت.

هززتُ رأسي استنكارًا. حدّقتُ في أمي وقتًا طويلاً. كانت بشرتها شاحبة، وفي حاجة إلى تناول مزيدٍ من الطعام. شَبكَت يديها معًا. كانت جروحها في حاجة إلى تنظيف. وكانت في حاجة إلى ضمادات. لم تنتبه إلى أيٍّ من تلك التفاصيل. ظلَّ بصرها مُسَمَّرًا على النافذة. ووجهها مَغمورًا بالضوء.

دخلَ مايكل وخبط بقدميهِ على أرضية المطبخ. ثمّ ضغطَ كفّيه على وركيهِ الضيّقين، وسألَ بِانفعال: مَن وضعَ كلّ هذا الريش في غرفتي؟

لم يُجِب أحدٌ بشيءٍ.

وأردفَ غاضبًا: يوجدُ ريشٌ في كلِّ مكان. لم تتجاوب أمي مع كلامه. وبدلاً من ذلك، تركت يدها تنجرفُ نحو خدّ مايكل، وأخذت أصابعها تداعبُ صدغيهِ وشَعره على نحوٍ غامض، بينما أبقت عينيها ثابتتين في مكانٍ آخر. نظرَ مايكل إلى الساعة، وسأل: هل تأخرنا؟

قلتُ كاذبةً: لا. وكنا متأخرين بالفعل، ونتأخر أكثر بمرور كلِّ دقيقة.

عادة كنا نقود درّاجتينا إلى المدرسة – وكنتُ على الدوام أقود درّاجتي وراءه قليلاً وجسدي نحو الطريق، بحيث أتمكن من إلقاء نفسي أمام أيّ سيارة تقترب منا كثيرًا. إلَّا أن دراجة مايكل سُرِقَت من المدرسة (على الأرجح سرقها مُشاجِرٌ لم يكتفِ بسرقة الدرّاجة فحسب، إنما أخذَ السلسلة والقفل وجزءًا من موقف رَكن الدرّاجة كذلك)، ودرّاجتي أيضًا لم تعد قابلة للعمل (باتت التُّروس عبارة عن صدأ أكثر ممَّا هي معدن)، لذلك كنا مضطرين إلى الذهاب سيرًا على الأقدام. وكانَ مايكل يمشي ببطء. وحتى لو جررتهُ خلفي، فسيظلّ متأخرًا. وبالنسبة إليَّ... حسنًا، لم أكن متأكدة مما إن كنتُ سأصلُ إلى المدرسة أم لا.

أخذَ مايكل مكنسة، ومضى إلى غرفتهِ ممتعضًا كي ينظّفها.

التفتُّ إلى أمّي مجددًا. كانَ في ظهرها، حسبما تبيّن لي، ما لا يقلّ عن ست إصابات.

دونَ أن أتفوّه بكلمة، مشيتُ إلى الخزانة الفارغة تقريبًا إلى جوار الثلاجة (شبه الفارغة أيضًا)، وأخرجتُ علبة لوازم الإسعافات الأوّلية.

«لِنرَ»، قلتُ وأنا أضعُ شيئًا من الهاماميليس(11) على قطعة مربّعة من القطن الناعم، انتفضت أمي مسبقًا.

قالت: إنها بخير.

قلتُ: لا، لستِ بخير! أتذكرين العدوى التي أُصبتِ بها العام الفائت؟ إذا لم نتمكن من دفع تكاليف التأمين، فلن يكون في وسعنا بالتأكيد تحمّل تكاليف زيارة أخرى للمستشفى. هل أدخلتِ شيئًا في الحساب المصرفيّ أخيرًا؟

تمتمت والدتي: إنه لمنَ الفظاظة الحديث عن المال.

أجبتُها بنبرة شديدة: آه، حقًّا؟ غريب، ليس هذا ما يقولهُ أمين الصندوق في المتجر.

أشاحت بوجهها عني، مُتجنّبة عينيَّ، ورفعت ظهر قميصها لأنظّف لها جروحها. حالما اقتربتُ، لاحظتُ وجود كدمات على مؤخرة عنقها، ثمانية أشكال بيضوية صغيرة، نصفها على كلّ جانب، مثلَ بصمات الأصابع. كانت هناك أيضًا بقعة قاتمة على جانب فكّها وقد غطّتها بقليل من مسحوق التجميل. لم أسأل عن الكدمات. ذلك أمر عرفتهُ جيّدًا. في بعض الأحيان، كنتُ أتفهم دونَ أن يُقال لي شيء، عندما يكون عاشق في الصورة، كانَ من المتوقع حدوث كدمات عرضية. سوى أن الجروح غير طبيعية. لم أشاهد مثلَ هذا النوع من الإصابات عليها من قبل. صرختْ عندما وضعتُ لها المطهِّر.

قلتُ: نعم، هذا جرحٌ عميق.

قالت: هكذا هي الحياة.

قلتُ: لا أعتقد أنها يجب أن تكون كذلك يا أمي.

لم تجب. وعوضًا عن ذلك، أخذت تراقب النافذة، مُتَتبِّعة الكُركيّ بنظراتها. ضغطت على شفتيها بأصابعها، وطَبَعت على أطرافها قبلة.

قلّبتُ عيني غيظًا، وسألتها: بربكِ ما الذي ترينه فيه؟

لم تحوّل أمي بصرها. ظلّت عيناها مُثبَّتتين على الكُركيّ. أرخت يدها عن وجهها، وأراحتها على قلبها.

ثمّ قالتْ مع تنهيدةٍ: كلُّ شيء!

(11) الهاماميليس: الاسم العلمي لُشجيرة بندق الساحرة Witch Hazel. تُستخدم خلاصة هذا النبات لوقف النزيف. موطنه الأصلي أمريكا الشمالية.

٧

اشتملتْ منسوجات أمي الجدراية على وفرةٍ من الأشياء. كانت طريقتها في جمع الأشياء عشوائيةً ووليدة الصدفة كالطريقة التي عاشت بها بقية حياتها. اشترت ملابس مستعملة بالصناديق، ثمّ كَرّت الخيوط العادية وخيوط الغَزْل، وجعلتها في كومات كبيرة كي تَشدَّها على النّول. في بعض الأحيان، كانت تنسجُ حشائش المستنقعات المُجمَّعة، وغُلالات خيوط العنكبوت الحريرية، وعَسيل(12) شجر الصفصاف. وأربطة أحذية. وأسلاك مصباح مكسور. وقِطعًا ممزّقة من ألحفة قديمة في العلّية. ومعاطف عتيقة من القبو. وأليافًا كربونية من طائرة «درون» منحرفة من إحدى المزارع، جَمَحَت ثمّ اصطدمت بحظيرتنا وتحطّمت. وأسلاكًا صدئة ونوابض قديمة من معدّات زراعية مُهمَلة. حَسَك سمكة، أو الهيكل العظمي لثعلب، أو بقايا طائر نمنمة(13). كلّ عُنصر خِيطَ في القصّة.

ولم تكن أمي تنهض من نومها باكرة أبدًا. كنتُ أستيقظُ بِنفسي وأوقظُ مايكل للذهاب إلى المدرسة. وكنتُ أنا التي أُعِدُّ وجبات الإفطار، وأُجهّز وجبات الغداء للمدرسة. وكنتُ أقتصدُ في استخدام الأغذية في حجرة المؤن إلى أن تتمكن أمي من التسوق مجدّدًا. على سبيل المثال، كنتُ أخلطُ رقائق البسكويت المملّح المفتّتة مع التونة. وأضيفُ مزيدًا من الماء والملح إلى الحساء المعلّب. وأكشطُ العفن عن لحم الخنزير المدخن، وأتأمّل خيرًا. وكنتُ أراقبُ الحساب المصرفي وأوازنُ الحسابات. عندما كنتُ في سنٍّ صغيرة جدًّا، أتقنتُ عمليات الحساب –أحببتُ الدّقة والترتيب والإبقاء على الأمور منظّمة– لذلك علّمني أبي كيفية عَمَل دفتر الحسابات، وشرحَ لي أُسس المحاسَبة. كما دلّني على الأدوات في الكمبيوتر التي استخدمها لإدارة مبيعات والدتي، وموارد الأسرة المالية، وكلّ حبلٍ رفيع ضُبِطَ بدقة وعناية في شبكة الأمان التي حافظت علينا من السقوط أرضًا. بعد مماته، تولَّيتُ زمام الأمور. لم يخطر في بالي أنها مهمة غريبة يُعهَد بها إلى طفلة في سنّ التاسعة. ففي النهاية، كانت مجرد مسائل رياضية وألغازًا منطقية. أحببتُ صنعَ كلّ شيء بصورة صحيحة. ولم يكن طهو العشاء مختلفًا عن المشاريع التي قمنا بها في فصل العلوم. كنتُ جيّدة في المدرسة، أو كنتُ كذلك في ذلك الوقت، وكنتُ أتحرّق إلى العودة إلى المنزل مسرعة لتولّي رعاية أخي الصغير، كي يتسنّى لي إخباره بكل ما تعلّمتهُ أثناء عمل أمي في مُحتَرفها. كنتُ بارعةً في هذه الأمور، ومن الجيد أن يكون المرء بارعًا في هذه الأمور. وكان من الجيد أيضًا أن أكون في موقع المسؤولية.

برغم الشائعات في مجتمعنا الصغير، وعلى الرغم من الاعتقاد السائد، بأن والدتي، كونها فنّانة، هي على حدٍّ سواء مُتبطّلة غريبة الأطوار وغير متوافقة مع المجتمع، وتعتبر بصفة أساسية استنزافًا للنوايا الحسنة في البلدة، لم يكن هناك أحدٌ في أي مكان يعمل بمثلِ اجتهادها. كانت منسوجاتها الجدارية عبارة عن مشغولات مهيبة هائلة الحجم، خِيطت وتعدّدت طبقاتها بكثيرٍ من الكدّ والاهتمام، وخُطّطَ لها بعناية، وابتُكِرَت من مصادر خلّاقة،

وكانت سريعة الإدهاش على الدوام. رَوَت منسوجاتها قصصًا داخل القصص، عن سطوة الزمن، ومأساة الحبّ، والحضور الدائم للقبور. روتْ قصصًا عن الشهوة والجريمة والميلاد، عن أيادٍ جشعة تقبضُ على موارد شحيحة، عن آلهة محتالة مختبئة بين أوراق الأشجار المحتضرة، تأملُ برغم اليأس أن تُؤتي مخططاتها أُكلَهَا قبل فوات الأوان. وكانَت في منسوجاتها نساء من رُقعٍ زُخرفية(14) مصنوعة من الريش والأسلاك الشائكة، ومخيطة فوقَ منظر الخلفية بخيوط ذهبية. أطفال رضّع من الأزرار. أطفال مُقتطَعون من أوراق إشعارات إخلاء مُصفرَّة. رجالٌ مصنوعون من جلود الأحذية المرقّعة؛ غارقونَ بالدموع. طَرَّزت مُدنًا مؤلّفة من أليافٍ جُمِعت من أكياس البذور العتيقة. كانت أمي معجزة. حتى عندما كنتُ مراهقة، وقد بلغَ إحباطي منها ذروته، علمتُ كم هي مدهشة.

كانتْ تظلّ مستيقظة طوال الليل وهي تعمل في مشروعها – رسم تصميم، أو غزْل الألياف وتحويلها إلى خيوط، أو إعداد النوْل، أو خياطة أي مادة عثرت عليها وقررت أن يكون لها دورٌ في القصة التي تخيطها. بعدئذٍ، تحت بريق نجوم آخر الليل، كانت تعلف الأغنام أو تتفقّد أجبانها، ثمّ ترتمي على سريرها خائرة القوى. ولم نكن نراها مستيقظة إلَّا بعد إيابنا من المدرسة، وفي بعض الأحيان نصل لنجدها وهي تمسح بيدها النوم عن وجهها للتوِّ. وحتى في وقتٍ متأخر من النهار.

ولكن بعدئذ دخلَ ذلك الكُركيّ حياتنا. وتغيّرَ كلّ شيء.

وما هي إلَّا أيام حتى أخذت أمي تستيقظ قبل الفجر بقليل، وتطوفُ في أرجاء المنزل وهي تدوّنُ ملاحظات في دفترها، بينما الكُركيّ في الحديقة يبحثُ عن الحلازين.

بعد استمرار هذا الحال لأكثر من أسبوع، سألتُها: هل أنتِ مريضة؟ كانت مصابةً بخدوش في مؤخرة ذراعيها وبجرحٍ فوق كاحلها مباشرة. لم أسألها عن تلك الإصابات. عرفت أنها لن تخبرني.

- مريضة؟ لماذا؟ لا. أنا لا أمرض أبدًا. ونَظَرتْ إلى الخارج. راقبتْ الكركيّ وهو يتسكّع في الفِناء. ولاحَ على وجهها الإشراق. اقترب الكُركيّ من النعاج التي انكمشت مُرتعدة في الزاوية. فابتسمت أمي. كانت لديها هالات سودٌ تحت عينيها. وكانَ شعرها باهتًا فاقدَ الحيوية.

قلتُ: اقعدي. سأُعِدُّ فطورًا.

نظرتْ إليَّ. كانت عيناها لحظتذاك غريبتين بالنسبة إليَّ، جوفاوين، خاويتين. كما الظّلام البارد بين المجرّات، أو الألم المُضجِر المديد لحقلٍ مُجدب لا نَبْتَ فيه. وبالعودة إلى الوراء، الآنَ، بِتُّ أعرفُ هاتين العينين جيّدًا. رأيتُ نفس العينين في وجوه نسوةٍ مختلفات على مرّ السنين منذ ذلك الحين، صديقاتي، شريكاتي في السَّكن، وزميلاتي في العمل. رأيتهما مرةً

على وجه جارتي، قبل استدعائي الشرطة لاعتقال زوجها. أنا نفسي كانَ لديَّ نفس العينين. ولكن لمرة واحدة فقط. رَمَشَتْ. وما زال الخواء فيهما. ارتعشتُ. لم أعرف ما الذي كنتُ أراه.

سَألَتني: كيف آكلُ؟ وأنا ممتلئةٌ بِكُلّ هذا الحُبِّ؟

تجاهلتُ كلامها، وأعددتُ لها صحنَ بيضٍ مخفوقٍ على أيّ حال. لثمتُ أعلى رأسها وأنا أُقدّم إليها الطعام، كما لو أني أنا الأمّ وهي الطفلة. لم تُصِبْ مِن الطعام لُقمةً واحدة. وانتهى بي الحال بإعطائه لمايكل، الذي تناولهُ باردًا.

في تلك الليلة حلمتُ بالرّيش طوال الحلم تقريبًا. ريشٌ على الأرض. ريشٌ في شَعري. ريشٌ في فَمي. ناديتُ مايكل، لكن الرّيش فقط ما خرجَ من فمي. فركتُ عينيَّ، سوى أنهما كانتا مِن الرّيش أيضًا. وإذ بدأتُ أشعرُ بالفزع، ركضتُ خارجةً إلى الحظيرة، وصعدتُ إلى محتَرف والدتي في الدور العلويّ. وهناك، رأيتُ الكُركيّ واقفًا عند نول أمي، وقد راحَ يخيط وجه أمي في منسوجةٍ.

كلا، كانت فقط صورةً لوجه أمي.

حدّقتُ بإمعانٍ إلى النول. توقّفَ الزمنُ.

لا، لقد كانَ وجهها الحقيقي، ترقّقَ الجلدُ وتمطّطَ بصورة مبهرجة، وظلّت أطرافهُ مُلطّخة بالدماء. ورَمَشتْ عينا أمي.

هززتُ رأسي. اصطدمَ منطقُ الحلم بمنطق الواقع، فَغطّت المشهدَ غشاوةٌ. حملقتُ. ابتسم وجه أمي في المنسوجة بِطُمأنينة. خاطبتني: «لا تقلقي يا حبيبتي، إنه لا يؤلم أبدًا. ثم إنك لم تتوقفي للإعجاب بقبَّعة الأب».

لا تنظري إلى قبّعة الكركي، قلتُ لنفسي، لا أعرف لماذا. صحوتُ مع شَهقة، مُبتلّة بالعرق، ومرتجفة.

في اليوم التالي، بعد المدرسة، نويتُ الاطمئنان على أمي في مُحتَرفها. قبلَ مجيء الكُركيّ كانت أمي تُرحبُ بنا دومًا للجلوس معها أثناء عملها. في أغلب الأحيان نقرأ الكتب فقط، ونستمتعُ بقربها على الرغم من تجاهلها لنا. أثناء اشتغالها بالفن، تصمتُ أمي مُركّزةً في عملها. وليس لديها هاتيك الانسيابية والاسترخاء اللذين يُميّزا بقيّة أوقاتها في الحياة. في العمل كانت تحرّكاتها محددة ومُنضبِطة، وأنفاسها سريعة وسطحية ومنتظمة، ولم يشتّ تركيزها أبدًا عن غُرزها وخيوطها، وعن رُسومها وخططها، وعن الآليات الحسّاسة لنوْلها العملاق. لزمنٍ طويل، لم يكن لديَّ سوى تصوّر بسيط جدًّا عن عمل أمي، وقتها قبالة نولها

وجلوسها إلى مكتبها كانا مجرد شيء فعلته، شيءٌ خطفَ انتباهها وأسَرَهُ لِسَاعات. بينما فضَّلنا، أنا ومايكل، أمي حين تكونُ الأُمَّ لا الفنَّانةَ.

مع ذلك، حتى لو لم تكن تتحدث كثيرًا أثناء عملها، فقد عرفنا بأنَّ حضورنا مُرحَّب به على الدوام. كانت تُخلي لنا مكانًا دائمًا. وتسعدُ بوجودنا بالقرب منها. دومًا.

ولهذا كانَ من المستغرب جدًّا أن أجد باب المُحتَرَف مُغلقًا.

ناديتُ من الخارج: أمي؟

لم تُجِب.

كوّرتُ يديَّ حولَ فمي، وصحتُ بصوتٍ أعلى: أمي؟

وما من إجابة. تمكنتُ من سماع صوت أمي والكُركيّ في الداخل. كانَ الكُركيّ يصيحُ ويُهمهم بصورة مزعجة. في حين كانَ صوتُ أمي ناعمًا ومُهدِّئًا.

سمعتها تقول مُطَمئِنةً: أعلمُ يا عزيزي، نحنُ قريبان جدًّا من الهدف. سأجعلُ كلَّ شيء جميلاً.

ولم يكن لديَّ سبيلٌ لمعرفة مقصدها.

(12) عسيل الصفصاف: ويسمى النورة الهرّية، أو زهر الصفصاف. ويكون على شكل كتلة زهر أسطوانية الشكل.

(13) طائر النمنمة، Wern: طائر غرّيد صغير من الفصيلة الوصعية، سُمّي بذلك نسبة إلى صغر حجمه، يكثر في أمريكا الشمالية وأوراسيا.

(14) وتُسمى أيضًا فن الأبليك (Appliqué): أو الأبلكة أو الطَبيقة. شغل خياطة وتطريز يدوي، عبارة عن إضافة رقع زخرفية من النسيج إلى مساحة كبيرة مختلفة عنها في اللون والمادة. تُسمى في مصر «خيامية»، وفي الحجاز «تيازيز».

٨

قبل وفاة والدي بمدة قصيرة، أمضينا الوقت معًا في غرفة مَرضِهِ، مُستَكنّين في الألحفة مُلتفّين بها، كلُّ واحد من تلك الألحفة هو من صنع أمي، ومُزدان بوفرة من الألوان الزاهية والزخارف والأفكار. عادة كان لحاف والدي المفضَّل مُسدَلاً فوق بقية الألحفة، وكانت يداه تتنقلّان فوقَ ألوانه الناضرة وحكاياته المثيرة للعجب، بالإضافة إلى تصويره السّاحرات الجميلات، والعمالقة النّزقين، ومُدنًا بأكملها مأهولة بالطيور، وفي منتصف اللحاف بالضبط أضافت أمي رجلاً وامرأة في يوم زفافهما، أيديهما متشابكة ووجهاهما شبه متلامسين. كانَ لكلٍّ منهما خيطُ تطريز أحمرُ اللون مغروزًا حيث يجب أن يكون القلبُ، وكان القلبان موصولين معًا بِسلسلة من العُقَد. كانَ الرجلُ مُضمحِلاً وغامضًا؛ الشكل الوحيد في اللحاف ذي لون رماديّ بدلاً مِن مُتعدِّد الألوان. وكانَ للمرأة جناحان ملوّنان بألوان قوس قزح، وقدمان مصنوعتان من الرّيش. وكانَ لديها أيضًا زرٌّ مُثبّتٌ على فمها.

دنوتُ من والدي أكثر وعانقتهُ. باتت رائحتهُ لاذعةً أكثر يومًا إثر يوم، رائحة كنتُ سأعرفها أكثر فيما بعد بأنها ما تبقى من محيطٍ مُنحسر، حيثُ التحلّلُ والذوبان والملح. حينها لم يسبق لي وأن أبصرتُ المحيط، وتخيّلتُ أنه لا بدّ وأن يكون شيئًا مثل حقل الذُّرة؛ أزيزًا وهمسًا وموجة يبلغُ مداها حدَّ السماء. في تلكَ الأيام انتفضَ من الألم كثيرًا. واختلجَ في بعض الأحيان. كانت هناك أنابيب مغروسة في أنفهِ لمساعدتهِ على التنفس، وأنبوب أُولِجَ في ذراعهِ مباشرة، يقطرُ سائلاً شفّافًا، وأنبوب آخر يُوصَلُ أحيانًا بفتحةٍ على صدره.

كانَ في مستطاعي تمضية النهار بطولهِ مع أبي، وغالبًا ما فعلتُ ذلك. كنا نقرأ الكتب معًا، أو أرسمُ ويُثني على جهودي. علّمني كيف أحلُّ الألعاب الرياضية والألغاز المنطقية، كما علّمني الجمع ببراعة، أو ضرب أعداد كبيرة حدّ الذهول في فترة زمنية قصيرة على نحو مثير للإعجاب. «إنها مجرّد أنماط، أرأيتِ؟ بمجرد أن تتمكني من معرفة الأنماط التي يُشكّلها العدد، بمجرد إدراكك حيلتها، حينها لن تفرقي العمليّة الحسابيّة البسيطة عَن العمليّة المعقدة. سوفَ يتعرّف دماغك إليها قبل أن يكون لدى بصرك الوقت لمعالجة الأمر برمّته». علّمني أبي أيضًا كيف أُميّزُ الطيور من أصواتها، وكيفَ ألتقطُ ذبابة بين سبابتي وإبهامي. حتى أنهُ علّمني كيفية فتح القفل، باستخدام صندوقٍ من المعدّات أبقاهُ مُخبّأً تحتَ السرير لأنهُ علم بأنّ أمي لن توافق على شيء كهذا. لاحقًا، نقلتُ ذلك الصندوق إلى خزانة ملابسي دونَ إخبار أحد. كانت المرة الأولى التي علمتُ فيها أنهُ من الأفضل أحيانًا الاحتفاظ بما يمكنني فعلهُ لنفسي.

أبقى أبي يديه على شَعري أو كتفيَّ أو مُكوّرتين حولَ يديَّ كي يتحاشى ارتعاشهُ. كانت أمي في مُحتَرفها، ومايكل إمّا في الحمّالة أو مربوطًا على ظهر أمي. حينذاك، عَمِلَتْ أمي

طوال الوقت. في بعض الأحيان لم تشأ القدوم إلى الفراش في الليل. وأحيانًا لم تدخل المنزل إطلاقًا. وكنتُ ألمحُ نظرة أبي مُنجرِفةً نحو النافذة. وأُحِسُّ بتنهيدتهِ العميقة.

انتبهتُ إليه وهو ينظرُ نحو النافذة، وَعَبستُ.

ولاحظَ عبوسي فَأنَّبني.

قال أبي: ما هذا الوجه؟

لم أعرف بمَ أجيب. أردتُ أن تكون أمي معنا، في السَّرير. ومايكل أيضًا. الحقيقة هي أنها لم تضايقني بشدة، وإنما مجرد خطأ تسبّب في الحكة والشدّ، مثل سُترة غير مناسبة. لم أكن أعلم تمامًا لماذا. كانَ من المفترض أن نكون معًا. وحقيقة أننا لم نكن معًا، هو خطأ أمي، كنتُ متأكدةً من ذلك.

لم تكن لدي كلمات لوصف ذلك سوى أن أبي أرادَ جوابًا. عبستُ للحظاتٍ. وقلتُ في الأخير: أمي مُمِلّة. لم يكن هذا ما شعرتُ به بالضبط، لكنها كانت أقرب جملة تمكنت من التفكير فيها، وأصابت الحقيقة. تلقّى أبي هذه المعلومة، وقد شابت وجهه تعابير الجدية والقلق. كانَ الشخص الوحيد من بين الكبار الذين عرفتهم يأخذُ كلامي على محمل الجدّ.

قال: فهمتُ. وسعلَ في منديل ورقيّ، ثمّ أخفاهُ في جيبه بخفّة قبل أن أتمكن من رؤيته. «لم أفكر فيها بتلك الطريقة قطُّ، إلَّا أنك بكل تأكيد تعرفين أكثر مما أعرف بشأن هذه الأمور».

وافقتُ على قوله: نعم أعرف.

قال مُغيّرًا الموضوع: أتدرين، بأنه في الروايات القديمة اعتُبرَ النسَّاجون غالبًا من السَّحرة؟

سألته: ما النسَّاج؟

قال: أمك نسّاجة، تلك مهنتها.

قلتُ مُقطّبة: ظننتُ أنها ترسمُ صورًا، ثمّ تبتكر أشياء باستخدام الخيوط.

- صحيح. قالَ أبي واضعًا يدهُ على خدّه، وكانت يداه ناعمتين حينئذٍ - نفس الشيء.

قلتُ: أعتقدُ أني أعرفُ هذا بالفعل. قلتُ ذلك لأني أردتُ أن يعتقد والدي بأني ذكية.

ردّ أبي مستخدمًا نبرة جادة: أجل. ولقد أسعدني أيّما سعادة أن أخذَ قولي بِعين الاعتبار والأهمية.

استطرد أبي بالقول: حسنًا. إن أردنا أن نكون دقيقين حول هذا الأمر، فإِن أمك نسّاجة، بل أكثر من ذلك. هي نسّاجة فاخرة. نسّاجة فنانة. ثم جذبَ نَفَسًا آخرَ مرتجفًا. لِعلمك، هناك كثير من القصص حولَ النسّاجين. قصص وأساطير مؤثرة وموغلة في القِدَم. فالإغريق، على سبيل المثال، رووا قصصًا عن الأقدار. كنَّ سيّدات عجائز خيّطنَ النَّكبات والأحزان في نسيج حياة البشر. بِسحبةِ خيطٍ واحدة يمكن أن يضيع الحبّ، أو تنتهي حياةٌ، أو تهوي مملكة في الخراب.

سَعَلَ مجدّدًا. كان الكلام أحيانًا يستهلك كثيرًا من طاقته. ناولتهُ ماءه. كانَ يُعاني من صعوبة في البلع، وتناثر بعض الماء على ذقنه. تنحنحَ بعد ذلك.

استأنفَ كلامه: في أيرلندا، جلست الإلهة «بريغانتيا»[15] قُبالة نوْلها، ونَسَجت الأرض كلَّها فأتَت بها إلى حيِّز الوجود، غرزة بغرزة جميلة، وأخرى مُخرَّبة. عَاوَدهُ السُّعال. في الصين خَاطَت الإلهة «تشينو»[16] كلّ نجمة من النجوم في السّموات، وحَاكَت النهر الفضيّ المارَّ عبرَ السَّماء. في مصر القديمة، نَسَجت الإلهة «نيث»[17] مملكتين معًا، وأنشدَ الڤايكنغ الملاحمَ البطولية «السَّاغا»[18] عن نساء الڤالكيري اللَّواتي غزلنَ على أنوالٍ رُفِعَت عليها رؤوسٌ مقطوعةٌ لِتثقيلها، واستخدمنَ السِّهام لِسحبِ الخيط من نهايةٍ إلى نهاية مريعة. كانَ بمقدور النسَّاجين التنبُّؤ بمستقبلك، أو فكُّ السِّحر عنك، أو تغيير مصيرك. وكانَ من الممكن نَسْج زواج سعيد، وعائلة صحيّة ناجحة، وجيل محكوم عليه بالفَناء، وإسقاط حقٍّ مُكتسب منذ الولادة.

لا ينبغي لكِ إثارة غضب نَسّاج أبدًا، أوكّدُ لكِ ذلك.

سعلَ من جديد. وارتعشَ. ثمّ ضغطَ على زرٍّ متّصلٍ بالأنبوب في ذراعه. وكانَ سينامُ قريبًا. قرّبتُ يديَّ من وجهه، وأمعنتُ النظر إلى عينيه، راغبة في أن أكون حاضرةً لحظة غياب وعيه.

سألتهُ: هل أمي ساحرة؟ كانَ صوتي جادًّا. لم أصدّق ذلك لثانية، ولمَ عليها أن تكون ساحرة؟ من الواضح أنني كنتُ سأعرفُ بحلول ذلك الوقت إن كانت ساحرة. ومع ذلك، أردتُ التأكّد.

أثقلَ النعاس جَفني أبي. فتحهما وأغمضهما ببطء، مثلَ أمواج المحيط. لم يُجبني على الفور.

بعد لحظة. قال: هناك قصة عن رجلٍ عجوز يُنقذُ طائر كُركيّ. تقع أنثى الكُركيّ هذه في حُبّ الرجل، فتحوّلُ نفسَها إلى امرأةٍ تَحيكُ أجمل قماش رآهُ أيّ شخص على الإطلاق. يبيعُ الرجل هذا القماش، فَتُقبِلُ عليه الدنيا وَيَغتني. بالكاد يُصدّق حظّهُ الحَسَن. زوجة حسناء. عملٌ مزدهر. وسعيدان في زواجهما. في حياتهما معًا. في غاية السّعادة والحبور. زمنًا يسيرًا. ولكن بعد ذلك يصيرُ جَشِعًا. لأن الرجال يُصيبهم الجشع. آهٍ، إنه مُمتنٌّ في البدء. ولكن بعد ذلك يريدُ منها المزيد والمزيد. يأخذُ ويأخذُ ويأخذُ. وبعد مدة وجيزة، لا يرى إلّا ما لم تصنعه، وما لم تُنجزه. بات مهووسًا بالثّروة التي لم يكسبها عملُها اليدويّ في المستقبل بعد. تغفرُ لهُ هذا الجشع، وتواصلُ عملها، وبلا انقطاع تصنعُ أكثر فأكثر للرجل الذي تُحبّه. كلّ ما تطلبهُ منه هو أن يتركها أثناء عملها. شرطُها الوحيد هو ألّا يفتح باب الغرفة حيثُ يقع نوْلها، وألاّ يُزعجها. حينها فقط تتحقق السعادة لكليهما. ولكن في يوم من الأيام ينفدُ احتماله. يُفكرُ في نفسه، إنَّها في منتهى البطء. إنها ليست رائعة كما يُريدُ لها أن تكون. المبيعات متردّية. إنهُ يُريدُ أن يصير أكثر ثراءً، وأكثر أهمية وشهرة. إنها ليست كافية بالنسبة إليه، وهو يُدركُ أنها لا يمكن أن تكون كافية أبدًا. كلُّ ذلك الجمال، وكلُّ ذلك الفنّ، ومع ذلك يشعرُ بأنها أخفقت. وبأنها خذلتهُ. يفتحُ الباب فجأة ويقتحم غرفتها رافعًا صوتهُ لكي يلومها. ولكن عوضًا عن زوجته الحسناء قبالة النول، يرى كُركيًّا جميلاً ينسجُ وينسجُ، وينسج. تتوقفُ أنثى الكُركي عن عملها، وتهزُّ رأسها. ثمّ تستديرُ نحو النافذة، وتَثِبُ إلى الإفريز، وتحلّقُ بعيدًا. ولا تعود بعد ذلك أبدًا.

اتّسَعت حَدَقتاه. وتَنهّد عميقًا بفمٍ مفتوح. صمتَ مطوَّلاً.

سألتهُ مرة أخرى: هل أمي ساحرة؟

قال، وصوتهُ فاتر مُتريّث: لا أحبُّ تلك القصة أبدًا. بكلِ تأكيد لن أكون ذلك الشخص. لا يمكنني تخيّل أن أرفضَ طلبًا واحدًا تطلبهُ أمك. علاوةً على ذلك، لماذا هي طائر كركيّ؟ طيور الكركيّ خبيثة مزعجة. وقاسية، أتعلمين ذلك؟ فقط اسألي أيّ ضفدع أو سمكة في البركة. الكُركيُّ مُفترسٌ مثل أي حيوان مفترسٍ آخر، ماكرٌ وانتهازيٌّ. لن يكون لأحدٍ من هذه الطيور الصبر على النسيج، أو الجمال في حدِّ ذاته. سيجعل الكركي شخصًا آخر يفعل ذلك من أجله، فأرًا ربما، أو عنكبوتًا. سوفَ يُشغّلهُ حتى الموت تقريبًا، ثمَّ يأكلهُ.

ثَقُلَ جفناه، وغارا عميقًا في تجويفهما. وتراخت يداه.

ظللتُ على مقربة منه، وأبقيتُ عيني على النافذة نحو مُحترَف أمي في الفِناء. أحيانًا كنتُ أرى خيال أمي على الجدار البعيد. ومن وقتٍ إلى آخر لمحتُ شيئًا من المنسوجات الجدارية التي كانت تنسجها، عندما تضبط الإضاءة.

قطّبتُ جبيني، لم يبدُ ذلك ساحرًا على الإطلاق.

(15) بريغانتيا أو بريغيندو، Brigantia: إلهةٌ من الأساطير السِّلتية مرتبطة بالسِّيادة والحرب وحماية الأرض.

(16) تشينو، Zhinü: إلهةُ النسيج، والنجمة «فيغا» في الأساطير الصِّينية. يُعتقد أنها حاكت أردية أبيها الملكية من الغيوم.

(17) نيث، Neith: إلهةٌ مصرية قديمة، قيل إنها الأولى والمبدعة الرئيسة، كانت إلهةَ الكون والقدر والحكمة والنَّسيج والصيد والحرب والأمهات والأنهار والولادة.

(18) ساغا وتلفظ ساگا: ملحمةٌ بطولية. جنس أدبي من الإرث الإسكندنافي، هو عبارة عن تأريخ نثري محكيٍّ يصف أحداثَ ملاحمَ الڤايكنغ ورحلاتهم ومعاركهم بين القرنين العاشر والحادي عشر حيث بدأت بالانحسار بعد انتشار المسيحية في إسكندنافيا. من أشهر كتَّابها الإيسلندي (سنوري سترلسون).

٩

بعد شهر تقريبًا على قدوم الكُركيّ، عَرَّجتْ بمنزلنا مُرشدةٌ اجتماعية.

لم تكن مفاجأة، أو على الأقل، لم أُفاجَأ بقدومها. كنتُ قد فوَّتُّ حصة واحدة على الأقل -وأحيانًا الحصص جميعها- في كلّ أسبوع منذ بداية المدرسة. بصراحة، كانت المفاجأة الوحيدة هو أنّ الأمر استغرقَ كل هذا الوقت. فقد كنا في نهاية شهر آذار على أيّ حال.

ارتدتْ المرشدة الاجتماعية ملابسَ بلون البيج، وحذاءً لونه بيج، وسروالاً لونه بيج، وسُترةً قصيرة أنيقة لونها بيج، وبلوزة من الحرير كريمية اللون مفتوحة عند الجِيد. ومِن سِلسلةٍ حولَ رقبتها تَدلَّت تعليقةٌ فضّيةٌ على شكل طائر. بينما جمعتْ خصلات شعرها المموّجة الداكنة في كومةٍ مشدودة أعلى رأسها، مع ضفيرةٍ مَلفوفة حولَ القاعدة. كما ارتدت نظّارتين بطرفين معقوفين عند الجانبين، حيثُ توجدُ نقطتان صغيرتان خضراوان تومضان مثلَ الزمرّد، مُشيرتين إلى أنهما مُتّصلتان لاسلكيًا بالحاسوب اللوحي «التابلت» الموضوع في حقيبة أوراقها المفتوحة.

- يتحتّم عليَّ إبلاغك بأني أُسجّلُ هذا التواصل. قالت بمرحٍ. كانت لديها أسنان صغيرة وشفتان حمراوان. افترَّ ثغرها عن ابتسامة.

قلتُ: نعم. وأطبقتُ شفتي بإحكام في خطٍّ مستقيم في حال فاتها الازدراء في نبرة صوتي.

- يمكننا رؤية ذلك بالفعل. وأومأتْ ناحية صورتي وصورة مايكل الذي بدا مرعوبًا، بينما كنا نحدّقُ من خلال شاشة الحاسوب اللوحي الملطّخة بالبصمات. لوّحتُ لنفسي بالتحية.

قالت: أفترضُ أن في وسعك رؤية ذلك. يُخبرني ملفّك بأنك فتاة ذكية. سوى أنك لستِ ذكية إلى درجة الذهاب إلى المدرسة كلَّ يوم.

قلتُ: أذهبُ إلى المدرسة دومًا.

- بالطبع تذهبين إلى المدرسة كلَّ يوم. لدينا شريط من الفيديوهات في الإدراة تَظهرين فيها وأنتِ تُشهرين إصبعك الوسطى أمام كاميرا الباب الأمامي. كلّ يوم. قد يظن المرء أنها مرة واحدة ولن تتكرر. في الواقع، أردتُ القول إنكِ لستِ ذكية بما يكفي للبقاء في المدرسة طوالَ اليوم. الفتيات الذكيات يبقينَ في المدرسة كي يتسنّى لهنَّ ارتياد الجامعة، ما يمنحهنَّ أجنحة للطيران بعيدًا، بعيدًا عندما يكبرنَ. وحدُّهُنَّ السّماء، مثلما يقُلن. أليس ذلك ما تُريدينه؟ يقولُ لي مُعلّموك إنك شُعلة من الذكاء، ويتنبّؤون لكِ بمستقبل أكثر إشراقًا،

ومع هذا يبدو أنك لا تُبدين كثير اهتمام بتعليمك. لديَّ فضولٌ لمعرفة السبب. والتمَعت في وجهها ابتسامة أخرى. أنا سيدة فضولية، أفهمتِ؟

وَقَفَتْ في الشرفة. بينما وقفتُ عند مدخل الباب. لم أكن قد دعوتها للدخول بعدُ. لم أكن واثقة بأني سوف أدعوها للدخول. لم يكن مسموحًا لها بتخطّي عتبة الباب دون موافقة شفهية صريحة. كانت هناك قواعد لمثل هذا النوع من الأشياء. حتى أنا عرفتُها.

قلتُ بصورة قاطعة: «أعني». ومع أني أردتُ أن أقلّب عيني لأُظهر امتعاضي، فإني لم أفعل ذلك، لأن تصرفي كان سيبدو مُبتذلاً على نحو واضح للغاية. «إن تسمية أيّ شيء يحدث في تلك المدرسة "تعليمًا" –رسمتُ في الهواء علامتي اقتباس– هو أمر مبالغٌ فيه بعض الشيء». تلاشتِ البهجةُ على وجهها، قليلاً فقط. «في الأسبوع الماضي، عرضَ علينا معلّم التاريخ شريطًا سينمائيًا. شريط سينمائي حقيقي. لم يكن لديَّ فكرة أن هذه الأشياء لا تزال موجودةً. لا بدّ وأن عمرها مئة سنة».

زَمَّت المرشدة الاجتماعية شَفتيها: يبدو أنهُ يحمل قيمة تاريخية. ربما كانَ عليكِ الانتباه.

«لم يُعر مُعلّمي الأمر انتباهًا. خرّ نائمًا في منتصف العرض». شددتُ سُترتي حولَ كتفيّ بإحكام أكثر، وعقدتُ ذراعيَّ. بدأ مايكل، الواقفُ بقربي، يرتجفُ. كانَ الجوُّ باردًا، وكنتُ أسمح بتسريب الدفء من البيت. وما كنّا لنقف في مدخل الباب طوال النهار. «وعلى أيّ حال، لم يكن للشريط السينمائي صلة بموضوع الدرس. كانَ الأمر برمّته عبارة عن إضاعة للوقت».

بالمناسبة، لم يكن أيٌّ من ذلك صحيحًا. كانَ المعلمون على ما يرام. مجرد أنهم مملّون. كانوا غير مؤثرين وغير مُثيرين للاهتمام بطرقٍ لم أتمكن من التعبير عنها بالضبط، ومع ذلك أزعجتني. لم يكن لديَّ اهتمام كبير بالمدرسة الثانوية، الاستعراض والمظاهر الباذخة فيها، التبجّح بإظهار الشجاعة، القوانين غير المكتوبة، تدافُع الأشخاص بوجوههم وروائحهم. لم آبهْ كثيرًا بالأولاد الذين نظروا إليَّ نظرات تساؤل وارتياب –أو سألوا بصوتٍ عالٍ في وجهي– إلى أي حدٍّ كنتُ مثل أمي. أكنتُ مولعة بالفنون مثلها؟ أكنتُ فاسقة مثلها؟ هل كنتُ مأساوية إلى حدٍّ ما في قصة تقليدية محلية طافت بين سكان البلدة همسًا؟ (لم أكن أشبه أمي في شيء. وكنتُ مثلها في كل شيء. كلاهما في الوقت نفسه). كلُّ ما أردتُ فعلهُ حقًّا هو العثور على مكانٍ هادئ حيثُ يمكنني الرسم وتأمُّل السَّماء والانشغال بأفكاري الخاصة. وفي بعض الأحيان، كنتُ أنضمُّ إلى الأولاد الآخرين الذين يتغيَّبون عن الدروس، كانوا في الغالب ممن يتعاطون المخدرات أو الكحول. لم أكن مهتمة بأيٍّ من تلك الأمور، لكننا وجدنا أشياء أخرى يمكننا القيام بها لتزجية الوقت. كنتُ ألازمُ أيّ مجموعة كانت إلى أن يأتي أحدهم كما هو متوقع، ويسألني سؤالاً عن والدتي يبدأ بعبارة «هل صحيح أنَّ»،

فأعتزلهم عند هذا الحدّ. لا أتذكر اسم أحدٍ منهم. لستُ متأكدة من أنني عرفتُ أسماءهم أصلاً.

تفحَّصتني المرشدةُ الاجتماعية بنظراتها من أعلى إلى أسفل. ونَظَرتْ نظرة فضولية إلى مايكل الذي كان متواريًا خلفَ ساقيَّ. كانت أمي في المُحتَرَف. تبتكر الفنون. وترنو إلى الكُركيّ بِعين الغَرام. وتصنعُ أشياء أخرى لم أرغب حتى بالتفكير فيها. آملُ أنها ذات صلةٍ بالفنِّ فقط.

سألتني المرشدة الاجتماعية: هل والدتك في المنزل؟

أجبتُ: لا.

- هل يمكنني الدخول؟

انكمشتُ قليلاً. إنْ قلتُ لا، فسوفَ تعودُ بوثائق قانونية تُؤكّدُ حقّها في الاطّلاع على أيّ شيء تُريده. وسوف تكون في مُهمّة رسمية. أجريتُ في رأسي بسرعة جردًا للمحتويات الإجمالية في الخزائن والثلاجة. عبوة من الـ«هوت دوغ» التي تكوّنت عليها طبقة لزجة، لكن شَطْفها سريعًا سيجعلها في حالة جيدة وكأنها طازجة. وبضع تفاحات بقشرة متجعّدة يمكنني تقطيعها أو تقشيرها. وقرص ثمين من أجبان أمي. في الغالب، كانت تبيع تلك الأجبان للحصول على المال وتوفير المصاريف، ولكن بين حينٍ وآخر، كانت تحتفظ بقُرصٍ لنا كي نتلذّذ به. قطّعتهُ إلى شرائح رقيقة ليدوم لفترة أطول، ولم ترُق لي كثيرًا فكرة مشاطرته مع هذه الغريبة.

- بالطبع. قلتُ وأنا أتراجع إلى الوراء وأفتح ذراعي في لفتة كبيرة للترحيب بدخولها المنزل، وقد استقرت على وجهي ابتسامة ماكرة طفيفة تمنّيتُ ألَّا تلاحظها. – أهلاً بكِ في بيتنا المتواضع. رجاء اعتبري نفسك في بيتك. هل أنت جائعة؟ أم هل أجلب لكِ شيئًا تشربينه؟

- يا للأخلاق العالية! قالتْ وهي تمرُّ من أمامي داخلة المنزل، وعيناها تتنقلان في كلّ اتجاه. علمتُ بأنها تمسح المكان ضوئيًا بنظّارتيها، وتسجّل. ألقت نظرة شاملة على جميع أرجاء الغرفة، صعودًا وهبوطًا، وتوقفت هُنيهة عند المعلّقات الحائطية التي صنعتها أمي (فيها بعض العُري، إلَّا أنه ليس كافيًا لدقّ ناقوس الخطر)، و«بروفات» المنسوجات الجدارية التي تحولت إلى بطانيات رَمي(19). هنّأتُ نفسي في سرّي لأني نظفتُ المكان جيدًا يوم أمس، وكَنسته مرة أخرى لدى عودتي إلى المنزل. وما كان لأحد أن يُخمّن أبدًا بأن طائر كُركي يُقيم في المكان. لم تكن هناك ريشة في أيّ مكان. لاحظتُ أن عينيها حدّقتا بثبات إلى حذاء والدي الذي أعملَ فيه الكُركيّ ثقوبًا واسعة لتلائم مَخالبه. هزّت المرشدة

رأسها. لم يبدُ الحذاء صالحًا للاستخدام، على كل حال. وما كانَ عليها أن تقلق لمن هذا الحذاء.

قلتُ بِتعالٍ أكثر مما انتويتُ إظهاره: حسنًا، لقد تربّيتُ خير تربية، في وسعي تحضير طبقٍ من الجبن والمقرمشات المالحة إن شئتِ. ولم تكن الأخيرة صحيحة أيضًا. إذ لم يكن لدينا مقرمشات. وأملتُ أنها لم تنتبه إلى ما قلتُ.

ابتسمت لكلامي. ابتسامة صادقة.

- لقد تذوقتُ جُبن والدتك من قبل، وبرغم أنه يبدو لذيذًا، فسوفَ أعتذر عنه. ولا سيّما أنني لستُ جائعة. سأكتفي بكأس من الماء فقط.

جلسنا إلى طاولة المطبخ، ثلاثتنا. تَرَكَت عينيها تستقرّان على كلّ زاوية. على الصور الفوتوغرافية على الحائط. الكتب على الأرفف. وعلى حجرة المؤن شبه الفارغة. لم تكن هناك أسلحة بادية للعيان، مع أننا امتلكنا واحدًا – بندقية جدّي القديمة. احتفظنا بها في غرفة التخزين في الطابق السفلي، ملفوفة بقطعة من القماش الزيتي لحمايتها من الغُبار والحشرات والرطوبة، وموضوعة في صندوقٍ مقفول. في كلِّ عام، كنتُ أخرجها لأنظِّفها، مثلما علّمني والدي، وأتفقّد صندوق الذخيرة للبحث عن أي علامات للتدهور. علمني أبي الرماية في سنّ صغيرة للغاية. قبل أن يحتجزهُ سرير المرض. علّمني كيف أحدد الهدف بعين واحدة والتركيز بانتباه شديد. كما علّمني كيف أظلّ ساكنة وكيف أُبقي أنفاسي ثابتة وبطيئة. وكيف أسحبُ الزّناد على مهلٍ، برفقٍ بالغٍ إلى درجة أنه هو بذاتهِ لا يعرف أنه سُحِب. في وقتٍ لاحق، في الأشهر التي تلت وفاة والدي، حملتني أمي على التدرّب لساعات، الأهداف، وعلبُ القصدير، وكيس مليء بالرمال مُلقى في الهواء. كنتُ بارعة جدًّا. وكانت أمي تقول، «موهوبة بالفطرة!». أخبرتني بأنها مهارة ضرورية ينبغي لي المواظبة عليها، لأنك لا تعرفين ما قد يحصل، وقد تضطرين إليها ذات يوم. ولكنْ وقعَ هذا منذُ زمنٍ طويل. لم يلمسها أيٌّ منّا منذ سنوات.

لم يقل مايكل شيئًا. رجرجَ الثلج في كأسهِ. وازدردَ الماء. وحدّقَ إلى المرشدة الاجتماعية بعينين واسعتين. طوَّقتهُ بذراعي، وضغطتُ عليه ضغطة، لأعلمهُ أني سأتكفَّلُ بالأمر. لطالما تَكفّلتُ بالأمور وأخذتُها على عاتقي.

تحدَّثَت لبعض الوقت. وسألتني عن رأيي حول المدير الجديد (لم يكن لديَّ رأي)، وإن كانَ لديَّ اهتمام بالتطوع لتصميم مسرحية من أجل المدرسة (أيضًا لم يكن لديَّ اهتمام بهذا الأمر). سألتني عن عمل أمي، وعن العملاء الذين يحضرون أحيانًا ويرحلون، وعن الرجل الذي يُنسِّقُ لها مبيعاتها عبر شبكة الإنترنت، ويُديرُ عقودها والمدفوعات.

- اسمهُ بروس أليس كذلك؟ من الغريب أني لم أصادفهُ في جميع أرجاء البلدة. هل... يقضي وقتًا كثيرًا هنا؟ معكِ. أو مع أخيكِ؟

أجبتُ بحذر: حسنًا، لم أقل ذلك. إن بروس في الواقع يحبُّ البقاء بمفرده. وفي هذه الأيام، يمكن لأي شخص العمل من أي مكان كان. ليس بالضرورة أن يكون هنا في البلدة، عندما يتعلّق الأمر بالعمل. لا أصادفه كثيرًا. حسبما أرى، إنهُ يعيش فقط في الحاسوب وفي الهاتف.

مددتُ يدي تحت الطاولة وعصرتُ يد مايكل. فقد عرفَ بالطبع أنّ بروس ما هو الا اختلاق. كنتُ أنا بروس. أنا من أدرتُ مبيعات أمي. وكنتُ الشخص الذي تواصل مع المشترين المحتمَلين. وكنتُ أنا من كتبَ النشرات وحافظَ على تحديث الموقع الإلكتروني باستمرار. وكنتُ أنا من أضافَ إلى حساباتنا المصرفية، وسدّدَ فواتيرنا، وأوفى الديون، وتيقّن من تأمين المصاريف.

ولكن كانَ الناس أكثر استعدادًا لأخذي على محمل الجد عندما يظنون أن الشخص الذي يُرسل إليها رسائل البريد الإلكتروني أو الرسائل النصية هو رجلٌ يُدعى بروس. حتى أنهُ كانَ لديَّ برنامجٌ على هاتفي لتغيير صوتي، للمرات النادرة التي اضطررتُ فيها إلى التحدّث مع أحدٍ عبر الهاتف.

لفتُّ انتباه مايكل وغمزت إليه.

قالت المرشدة الاجتماعية وهي تضغطُ راحتيها معًا، ثم تضعُ رؤوس أصابعها على شفتيها: إذن، بروس ليس شخصًا يجب عليَّ القلق بشأنه. وسؤالي هو، هل أنتِ آمنة في المنزل؟

كَفَّت عن الكلام. وصار وجهها مُتساهلاً ورصينًا. بسطت يديها على الطاولة، وباطن كفّيها إلى الأعلى.

- ما أعنيه، بكلّ أمانة وصدقٍ. الأمان هو شغلي الشاغل، وهو سبب وجودي هنا اليوم. هل أنتِ في أمان؟ هل مايكل في أمان؟ هل هذا المنزل مكان آمن لك؟

خطرت في بالي أمي والجروح على ظهرها. والكدمات على رقبتها. فكرتُ في الكركيّ وتَبجّحهِ ونظرتهُ الخبيثة الشّهوانية. وفكرتُ في الحُلمِ والسّمكةِ وفي الطّرفِ الحادّ لذلك المنقار الوحشيّ. وفكرتُ في الريش في غرفة مايكل. وفكرتُ في فزع النعجات غير المنطقي. حاولتُ أن أجعل وجهي خاليًا من أيّ تعبير. مثلَ أمي.

قلتُ: آمنٌ مثل البيوت.

أعطتني بطاقة كُتِبَ عليها رقم كي تتصل به أمي، وكُتيّبًا حولَ أهمية البقاء في المدرسة، وكُتيّبًا آخر حولَ ضبطِ النَّسل، من قبيل الاحتياط. وأعطتني كُتيّبًا ثالثًا يشرحُ جِدّيًّا مضار المخدرات، ولم عليَّ عدم تعاطيها. وقالت لي إنها مدهوشة من عدم زيارة ضابط التغيّب المدرسي لي حتى الآن، مؤكدةً بأنها سَتوبّخهُ من أجلي، وترسلهُ إليَّ حتى نتمكن من وضع خطّة لإعادتي إلى المسار القويم. ومهما كانَ ما عَنتهُ. فقد طلبتْ مني الاتّصال بها متى شئتُ.

- كلُّ شخصٍ يستحقُّ أن يكون لهُ مَن يَعتني به. قالت وهي تمسحُ أرجاء المكان بنظرة أخرى، مُحتفظة بكلِّ تفاصيل منزلنا على حاسوبها اللوحيّ – اتّصلي بي في اللحظة التي تشعرين فيها بأن الأمور ليست على ما يُرام. حتى وإن لم تتمكني من تحديد سبب عدم شعورك بالارتياح. عندما يَتغيّب الأطفال عن المدرسة، فإنهم يهربون من شيءٍ ما. وهذا الشَّيء نادرًا ما يكون المدرسة في حدِّ ذاتها.

فأجبتها بِنبرة لاذعةٍ لم أتعمّدها إلى هذا الحدّ: آهِ حقًّا، فإذن مِمَّ يهربون في رأيك؟ هل تعتقدين أنني أهربُ من شيءٍ ما؟

نَزَعت المرشدة الاجتماعية نظّارتيها، ودسّتهما في جيبها. لا مزيد من التسجيل. لدقيقة واحدة، كنا أنا وهي فقط. حتى مايكل بدا أنهُ اختفى قليلاً. بلعتُ ريقي. تَفرَّست في وجهي بإمعان، واستحالت عيناها فجأة ودودتين وواسعتين. كما لو أنها كانت تراني للمرة الأولى. كما لو أنها أيضًا أرادت أن تُرى – لا أعتقد أنَّ أيًّا منا في حاجة إلى الإجابة على هذا السؤال. الجواب واضحٌ بما فيه الكفاية، ألا تعتقدين ذلك؟

لا أعلم لماذا، ولكن كلامها أثَّر بي في الصميم، كانَ بمثابة ضربة عميقة ومروِّعة. وضعت يدها فوقَ كتفي هُنيهةً. كنتُ متأكدة تمامًا بأن هذا التصرّف غير مسموح، سوى أني قدّرتُ لها ذلك كثيرًا.

– ما أعرفهُ هو أنه عندما يبدأ شخص في الهروب، يصعبُ عليه التوقّف. انخفضَ بصرها إلى أخي، الذي راحَ يُحدّقُ إليها وعلى وجهه تعبيرٌ مَكروبٌ. وفي بعض الأحيان قد لا يتوقف أبدًا، وهو أمرٌ مؤسفٌ حقًّا.

ثّم ارتدت نظّارتيها مرة أخرى. وعاد وجهها حازمًا وعمليًّا من جديد.

- سأعودُ قريبًا. كوني بخير حتى ذلك الحين. سأخرجُ بنفسي.

أمسكَ مايكل يدي وهي تخطو خارج المنزل. ضغطَ أصابعي بقوّة. قالَ وصوتهُ بدأ يرتجف بالفعل: لا أريدكِ أن تبتعدي عني. لن تهربي أليس كذلك؟

نظرتُ إلى الطائرات التي تحوّم في الخارج فوقَ الحقل، وتتحرك ذهابًا وإيابًا، وتتفحص الأرض بأعينها الإلكترونية. طنَّ السياج الكهربائي، محاصرًا إيّانا في الداخل.

قلتُ: يا صديقي، إلى أين سأذهب أصلاً؟

(19) بطانيات الرَّمي: يُراد بها البطانيات التي تُوضع (تُرمى) على حافة الأريكة للالتفاف بها، وللاستخدام أثناء النهار.

١٠

إنَّ وجودَ كركيّ مُقيم في المنزل يتسبّب في جُملةٍ من المشاكل. أوّلها مسألة مِشيته، والتي نظرًا إلى حجمه الأكبر من معظم الكَراكي الأُخرى، كانَ عليَّ التنبؤ بالتأرجح واسع النطاق وعلى نحو استثنائي لجسده، وبالتالي حماية الأغراض على الطاولات والأرفف من الاصطدام بها ثمّ السقوط.

على سبيل المثال، في أسبوعه الأول، خطا الكُركيُّ خطوةً واسعة، وتأرجح أرجحةً واسعة إلى جهة اليسار، فأطاحَ بريش ذيلهِ واحدةً من الصور القلائل المؤطرة المأخوذة لعائلتنا بأكملها قبل وفاة أبي، حيث كانت أمي حاملة مايكل على ذراعها، وأنا جالسة على رُكبة أبي، ويدي مُلتفَّة حولَ وجهه المنكمش. تهشّم الزجاج وخلّفَ خدشًا على خدّ أبي الأيمن.

- ماذا فعلت! صرختُ على الكُركيّ، وعيناي مغرورقتان بالدموع. التقطتُ الزجاج فجرحتُ أصابعي على الفور. أردتُ إلقاء حفنة من الزجاج في وجهه. وَقَفت أُمي بيننا، وذراعها ممدودة نحوي بالاتّهام.

تَوجَّهَت إليَّ بالاتهام. لقد تَجاسَرَت على ذلك!

صاحت أمي: كيفَ تجرُئين! نحنُ لا نهتم بالأشياء في هذه العائلة. ما قيمة الشيء؟ وما الغاية من أي شيء؟ وهو لا يعيش ولا يتنفّس ولا يُحبّ. القيمة الوحيدة التي يجب أن تكون عزيزة علينا وقريبة من قلوبنا هي الأحياء. الأشياء الجامدة ما هي إلَّا قُمامة الغد.

شهقتُ وأشحتُ بوجهي لئلاَّ أُضطر للنظر إليها. حملتُ الزجاج في يد، وبحذرٍ التقطتُ الصورة باليد الأخرى، مع الحرص على عدم تلطيخها بالدم.

خاطبتها مُتهكّمةً: أنتِ فنّانة يا أمي. تبتكرينَ الأشياء من أجلِ العَيش. وأومأتُ نحو سجّادة صغيرة مُعلّقة خلفها مباشرة على الحائط البعيد. بيد أنها لم تُصغِ لكلامي، ولم يبدُ عليها أيّ علامات حتى على الاعتراف بأنني كنتُ أتحدّث. وعوضًا عن ذلك وجّهت انتباهها نحو الكُركيّ. ووضعت يدها برفقٍ في ريشه. ولامسَ وجهها وجهه بحنان.

طَيَّبتْ خاطرهُ قائلة: آسفة يا حبيبي! إنها مجرد طفلة، لا يمكنها أن تفهم. ولكنها ستعقل يومًا ما.

ثمّ استدارت نحوي، وقد تغيّر وجهها بعض الشيء. كانت نظرة عجزتُ عن إدراك كنهها.

– سوفَ ترى عما قريب.

ولم تكن لديَّ أيّ نية لرؤية أي شيء من هذا القبيل.

* * *

أما المسألة الأخرى فهي مُتعلّقة بنظام الكُركيّ الغذائي. في أول مساءٍ لهُ في المنزل، عندما قدّمتُ إليه الحساء، لم يَمسَّه. حرّك أوراق السَّلَطة قليلاً بحثًا عن شيءٍ ما، كانت الحشرات، استنتجتُ ذلك لاحقًا. ثمّ تملَّكهُ الغضب والاستياء. وما زالَ كذلك حتى مساء اليوم التالي، عندما رأى فأرًا يركضُ عبر أرضية المطبخ مُسرعًا، حينها تبدّى لي بوضوح أنّ احتياجاته الغذائية مختلفة عن احتياجاتنا. أسرعَ الفأر بالهروب، وبلمحِ البصر، تأرجح الكُركيّ إلى الأمام من نقطة ارتكاز مفصل الورك، وانقضَّ منقاره البتّار على المخلوق بسرعةٍ وقوّة مذهلتين. فرقعَ الفأر مثل البالون. وبنفس الحركة السَّلِسة، طوّحهُ الكُركيُّ في الهواء وتَلقّفهُ بِحلقهِ، ثمّ ابتلعهُ دُفعةً واحدة.

خيَّمَ علينا الصمتُ لدقيقةٍ. ثمّ أفرغَ مايكلُ ما بجوفهِ في طبقه. وهرع بعد ذلك إلى غرفته ليبكي. كانَ يحبُّ الفئران. أحبَّ جميع الكائنات الصغيرة.

أشرتُ إلى بقعة الدماء على السجادة: هل سينظفها أحد؟

لم تَفُه أمي بكلمة. ذهب الكُركيُّ إلى الخارج ليصطاد. ابتسَمَت أمي بِتسامح. وقالت مع تنهيدة: أحدهم ما زال جائعًا.

وعلى الفور ساورني القلق بشأن هامِستري مايكل الأليفين، غولديلوكس[20] وكوبلاي خان[21]، اللذين عاشا في قفصٍ صغير بجوار النافذة في غرفة التخزين.

هلكَ كلاهما بحلول نهاية الشهر.

[20] غولديلوكس: التسمية مأخوذة من حكاية خرافية بريطانية من القرن التاسع عشر بعنوان: «غولديلوكس والدببة الثلاثة»، من تأليف الشاعر والكاتب والمؤرخ الإنكليزي روبرت ساوذي (١٧٧٤-١٨٤٣).

[21] كوبلاي خان: إشارة إلى الإمبراطور كوبلاي خان، الخاقان الخامس لإمبراطورية المغول (١٢٦٠-١٢٩٤)، وإمبراطور الصين (١٢٧٩-١٢٩٤).

١١

عقبَ ثمانية أسابيع على حضوره، باتَ الكُركيّ مَظهرًا ثابتًا في منزلنا. هبطتُ الدرج صباح ذلك اليوم من أجل تناول الإفطار، راجيةً أن أجدهُ مرة أخرى قد غادر، ومرة أخرى مُنِيتُ بخيبةِ أملٍ. جلسَ مايكل إلى أحد جانبي المائدة، مُحدّقًا إلى وعاء حبوب الإفطار الفارغ بصمت، بينما جلستْ والدتي إلى الجانب الآخر، وراحت تغازل الكركي وتلاطفه. كانت لديها جروح على عنقها. وجروحٌ على ثدييها. وجروح أعلى ذراعيها وأسفلهما. بعض الجروح بلغت من عمقها أن خاطتها بإحكام لتغلقها. أعربتُ عن فزعي –كثيرًا وبصوتٍ عالٍ– لكنها لوّحت بيدها مُستخِفّة بمخاوفي.

قالت: جروحٌ عرضيّة. كانَ في نيّتي إصلاح ذلك النول اللعين. مخاطر مهنية. صفعها الكُركيّ على ردفها بباطنِ قدمه، فَحَزَّز القماش بِمخلبه الحادّ. ثمّ عَلّقَ مخالبه كما الخطّاف بجيبِ سروالها الجينز وجذبَ ظهرها إلى حضنهِ، مُمزّقًا الدَّرزة قليلاً. وقعت في جسده -بين الرّيش الناعم والزوايا الصلبة– وهي تضحك. ثم قالت: هلَ عرفَ الزمان زوجين أسعد مِنّا؟

وصاحَ الكُركيّ صيحةً حادة.

استرعيتُ انتباه مايكل وتظاهرتُ بأني أتقيّأ. وبوجهٍ خالٍ من أي ردّ فعل، لم يُظهِر مايكل أنه لاحظَ شيئًا. كما أنه لم يتحدّث طوال الصباح.

في ذلك اليوم سِرتُ رفقةَ مايكل سيرًا بطيئًا إلى المدرسة. ومن جديد كنا متأخرين. في الحقيقة لم آبه كثيرًا. كنتُ راسبة في مادَّةِ اللغة الإنكليزية. وقد بلغنا المرحلة الأكثر صعوبة من الفصل الدراسي الثاني، لذا كانت احتمالاتي بخصوص تحسين درجتي في فصل اللغة الإنكليزية غيرَ واردة إلى حدٍّ ما. وشعرتُ أن لا فرق بين درجة رسوب عالية أو درجة رسوب مُتدنّية. ولم يكن ثمَّة مسوّغ للعجلة. كنا في شهر نيسان، وكان الجوّ حارًّا جدًّا بالنسبة إلى ذلك الوقت من نيسان. جلَدَت شمس الصباح وجهينا بشدّة، بينما كنا سائرين في ذلك الطريق الأسود الطويل.

في آخر الأمر، توقف مايكل في مكانه. ثمّ التفتَ إليَّ، عاقدًا حاجبيه. تمتمَ بعبوس، وبصرهُ مائل نحو حذائي: أنا لا أحبُّ أبي.

- لا تَدعُهُ أبي! قلتُ له. حتى أبونا الحقيقي لم نكن ندعوه أبي. ناديناهُ بابا. ولا يعني هذا أن مايكل يتذكر ذلك. فقد كانَ مجرد طفلٍ رضيع. أسماهُ أبي، «معجزة أبيه الصغيرة»، بما أنّ

الأطباء أخبروه بأنّ علاجه الإشعاعي والكيماوي جعلهُ عقيمًا منذُ مدة طويلة. بلى، أتذكرُ أمي إذ تقولُ بنبرة غامضة، وهي تنظرُ بِعينين سَاهمتين خارج النافذة: مُعجزة.

قال مايكل: لم تذهب إلى سوق المزارعين يوم السبت. وكنتُ أعلم ذلك. وكنتُ قَلِقة أيضًا. مضى وقتٌ طويل منذُ أن باعت إحدى قطعها الفنّية، ونحن في حاجة إلى المال قطعًا. ولكن مايكل كان في السادسة فقط. ويجب عليه أن يقلق بشأن تعلّم كيفية ربطِ حذائه، لا بشأن حساب أمِّنا الجاري. بذلتُ قصارى جهدي لِتهدئتهِ.

قلتُ: أحيانًا، لا يتصرّف الكبار كما تتوقع منهم. وأملتُ أن يبدو كلامي معقولاً وموثوقًا به بما فيه الكفاية لإنهاء الموضوع. غير أن مايكل لم ينتهِ منه بعدُ.

- إنها تذهبُ إلى سوق المزارعين على الدوام. كانَ فتى جادًّا. وميَّالاً إلى البكاء. لاحظتُ أن البقعة الزلقة عند حافة جفنيه بدأت تصير أغمق. كانت لديه كتلة كثّة من خصلات شعر بنيّة، تعيّن عليَّ أن أمشّطها ذلك الصباح، إلَّا أنني لم أفعل. إذ كانَ من المحتمل أن ينخرط في البكاء سريعًا، وبالتالي سأواجهُ صعوبة في إيصالهِ إلى المدرسة.

- إنها في الغالب تذهب إلى سوق المزارعين. وفي بعض الأحيان لا تذهب.

وما كانَ لشيء أن يُثنيه عن رأيه، قال: إنها تذهبُ إلى السّوق دومًا. وأنا أيضًا أذهب. وأساعدها في بيع الجُبن. وأنا لا أحبُّ بيع الجُبن دومًا، ولكني أحبُّ الجلوس مع أمي. ثمّ تأخذ المال وتشتري حاجيات من البقالة. لم تشترِ حاجيات من البقالة يوم السبت. واضطررتُ إلى تناول زبدة الفول السوداني دون خبز على الإفطار. إن فمي لزجٌ جدًّا الآن.

كانَ ذلك صحيحًا. وفمي أيضًا كانَ لزجًا.

حتى أنَّ مايكل لم يعرف القصّة كاملة. هناك مَهام لتصنيع الجُبن يجب إتمامها ضِمن ترتيبٍ مُحدد وبطريقة معينة، حتى أثناء عملية تَعتيق الجُبن. مثلاً، لم تُقلَّب أقراص الجبن. وَتَحتّمَ عليَّ القيام بذلك، وربما تأخرتُ كثيرًا. ويجب أن تقاس الرطوبة ثلاث مرات في اليوم، وأن تُعَدَّل بحسب الحاجة، وكنتُ على يقين تام بأن أمي لم تقم بأيٍّ من تلك المهام. ولم أعرف كم من أقراص الجُبن ستصمد أثناء الموسم، أو ما إذا كانت الأقراص ستنضج وتَتعتّق بما فيه الكفاية لتكون قابلةً للبيع. وظلَّت الدفعة الجديدة من أقراص الجُبن المضغوطة على عجل متروكة في زاوية الحظيرة لم تُمَسّ، كانت تتحمّض أثناء حديثنا، ومن المرجّح أن يترتب علينا التخلّص منها. كانت شاحنة التجميد قد وصلت في اليوم السابق، وأعادت أمي الشحنة إلى المرسِل. بين ليلة وضحاها، لم تعد أمي مهتمة بِصنع الأجبان. الشيء الوحيد الذي كانَ يُهمّها آنئذٍ، هو كلّ ما كانت تفعلهُ في مُحتَرفها مع الكُركيّ. ومهما كانَ ذلك الشيء، فقد خلّفها باستمرار مُدمّاة ومُتنهّدة ومُفرطة في الرومانسية والعذوبة مثل شرابٍ شديد

الحلاوة. كانَ ذلك مُقزّزًا جدًّا. بذلتُ ما في وسعي لطردِ تلك الأفكار لئلاَّ يراها مايكل مكتوبة على وجهي.

- هل أمي بخير؟ سألني مايكل، وهو يمسحُ أنفه بِظهر يده.

طوّقتهُ بذراعي وقلتُ لهُ: لا تقلق يا صديقي، إنها بخير.

كانت تلك كذبة واضحة...

أمي لم تكن بخير.

١٢

أحيانًا يأتي الإدراك على نحوٍ مُتقطّع. لحظة جلاءٍ هنا. وصوتُ دهشةٍ عالٍ هناك. وصفعة على الجبين لدى أمرٍ مِن فرطِ وضوحهِ يمكن لطفلٍ صغيرٍ أن يفهمه.

كانَ إدراكي الأول هو هذا: أن رجلاً حقيقيًّا يعيش في منزلنا أيضًا. بالإضافة إلى الكُركيّ. سمعتُ وقع خطواته في البهو ليلاً، يذرع المكان جيئة وذهابًا بعد أن تنام أمي. كان بمقدوري أن أشم رائحته النتنة من تحت بابي. وشرعتُ، من باب الحيطة، أضع كرسيّ مكتبي تحت مقبض الباب عندما آوي إلى فراشي. من غرفة نوم أمي الموصدة، كانَ بإمكاني سماع نعيق الكُركيّ، ثمّ دمدمة رجل مع لثغة في صوته، ومن بعدها تَنهُّد أمي. في مرة من المرات سمعتُ شيئًا بدا بوضوح أشبه بِلكمةٍ على الوجه. في اليوم التالي كانَ لدى أمي كدمة تحت عينها. وواحدة أخرى على كتفها. حاولت تغطية الكدمتين بِكريم أساس، غير أني رأيتهما على أيّ حال.

راوغتْ بالقول: عِضادة الباب. وتارة أخرى كذبتْ: تَنطَحني الأغنام أحيانًا.

- مَن غَيرهُ هُنا أيضًا؟ سألتُ ذات صباح، لدى ملاحظتي أن إبريق الحليب الذي كانَ نصف ممتلئ الليلة الفائتة، صار الآن فارغًا، واختفت الشرائح الأربع الأخيرة من سُجق «بولونيا»، مثلما اختفت علبة كاملة من شرائح الجبن المغلّفة. كنا إجمالاً نتسوّق المواد الغذائية من البقالة كل يوم سبت – نبتاع القائمة بأكملها عندما تكون أحوالنا ميسورة، ونكتفي بالضروريات عندما يضيق بنا الحال، ثم تقتصر مشترياتنا على ما هو أقل من الميزانية والتخفيضات في الأسابيع التي بالكاد استنفدنا فيها جميع مواردنا لتأمين قوت يومنا. بقينا في القاع زمنًا طويلاً، ورضينا بأقل القليل وبكلّ ما هو منخفض الجودة، حتى ما عدتُ أتذكر كيف تبدو أيام الوفرة.

رفعت أمي كتفيها غير عابئة: يشعرُ الناس بالجوع في بعض الأوقات.

- أنتِ لا تُجيبين على سؤالي. أعلم أنك لم تأكلي هذا الطعام. وأعلمُ أني لستُ من أكله. مايكل مضى إلى فراشه مبكرًا. مَن شرب الحليب؟ مَن أكل اللحم والجبن؟ عوّلتُ على هذه الأغراض من أجل غداء اليوم يا أمي، - ذلك... الشيء...

هتفت أمي، غاضبةً، بعينين مُلتَمعتين: مهلاً! وتجاهلتُ ذلك.

- يأكلُ الحشرات فقط والأسماك والمخلوقات يا أمي. مَن غَيرهُ هنا؟

أزاحت أمي خصلات شعرها عن عينيها بِظاهر أصابعها بِتأنٍّ، وقالت: لا أعرف عمّ تتحدثين. هذا المنزل يَضمّنا أنا وأنت وأخاك وأباك. لا يوجد أحد آخر.

قلتُ مُصالِبة ذراعيَّ: إنه ليس أبي!

قالت أمي: سنرى.

باشرتُ بالقول: ولكن ماذا عن... إلَّا أن أمي خطرت لها فكرة. أخرَجَت دفتر ملاحظاتها، وبدأت تدوّن شيئًا ما بسرعة، كانَ فمها مطبقًا وعيناها غائمتين. عرفتُ أنهُ لا سبيل إلى التحادث معها وهي في هذه الحالة.

توجهتْ بالحديث إلى الكُركيّ، وليس إليَّ: عزيزي! ولم يكن في حيّز الرؤية. هَتَفتْ بصوت أعلى: عزيزي!

فزعقَ الكُركيّ من الخارج. أطبَقَت دفتر ملاحظاتها على عجَلٍ، وخرجت مسرعة من المنزل. اختفيا في المُحتَرَف دونَ أن ينطقا بكلمة واحدة، وأغلقا الأبواب خلفهما. مضيتُ إلى الخارج، حائرةً، وأمعنتُ النظر إلى المكان الذي لم يعد يحتوي على أيٍّ منهما. أمي. والكُركيّ. حتى عند تلاشيهما، بقيَ حضورهما، مثلَ أثر بُقعةٍ بعد شهورٍ من غسيلها. اشتكت النعاج في حظيرتها. كانت في حاجة إلى إطعامها. كما افتقدتْ والدتي.

قلتُ لها: امنحيني ثانيةً. في محاولة مني كي أبدو مُطَمئِنةً مواسيةً، على الرغم من معرفتي حقيقة أنني لم أكن كذلك. كانت أمي مُطمئِنةَ العائلة، لا أنا. ثَغَتِ النعاجُ ملء صوتها.

سحبتُ من السقيفة كيسَ علَفٍ، وجذبتُ الخرطوم لِملء حوض الماء من أجلها. التَزَّت النعاج معًا في زاوية الحظيرة؛ كانتْ مضطربة ووثّابة. وملطّخة بالوحل. لاحظتُ ذلك فجأة. لقد أمطرت الليلة السابقة، بيد أن ذلك لم يُعلّل حقًّا من أين أتى كلُّ ذلك الطين المتكدّس. بسطتُ للنعاج يدي، وتركتها تشمُّ رائحتي. ارتجفت واحدةٌ من النعاج.

قلتُ مُحاوِلةً تهدئتها: مرحبًا نيكس. مرحبًا جين. مرحبًا بيفرلي. غير أنها أَبَت أن تهدأ. كانت هناك كومة من القشّ في الحظيرة، تجنَّبتها النعاج. ملأتُ لها أحواض العلف ووثبتُ من فوق الحاجز لأنظر إلى الريش عن كثب. مأمأتْ كما لو أنها تُحذرني كي أبتعد. انحنيتُ. بدا الريش مثل ريش الكُركي بلا شك. لم يُبدِ الكُركي اهتمامًا بالنعاج من قبل. ولماذا قد يتسلّق حاجز الحظيرة ويدخل إليها، فقط لِيطرحَ ريشهُ؟ دققتُ النظر أكثر.

مأمأتْ بيفرلي بتوسُّلٍ: مااااء.

نَحَّيتُ الريش جانبًا فَاستَرخت النعاج. على الأغلب. نظرتُ عن قرب أكثر. هناك، في الطين المتصلّب، كان هناك أثر قدمين، بِمقاسِ قدم الرجل.

صوتتْ نيكس: ماااء، وهي تضغط رأسها على يدي طلبًا للحك والتربيت. التَمَستِ المواساةَ. كانت نيكس أكثر النعاجِ احتياجًا إلى المواساة. استخدمتْ جسدَها لتدفعني بعيدًا عن آثار الأقدام، كما لو أنها سامَّة بصورة ما. وخطِرة.

تمتمتُ: أميلُ إلى الموافقة.

١٣

أيًّا كانَ ما اعتقدت أمي أنها لقيتهُ ذلك اليوم عندما اندفعت إلى المُحتَرَف، فقد تبيّن أنهُ مخيّب للآمال ولا يستحق العناء. عاد كلٌّ منهما إلى المنزل، في تلك الليلة، تُظلّه سحابة من الكآبة والإحباط، وانتشرَ استياء أحدهما من الآخر في الأجواء من حولهما. أَمسَت كلمات أمي مقتضبة ولاذعة. وباتتْ حركات الكُركيّ مباغتةً وعنيفة بصورة مبهمة. صارَ كل منهما جلفًا وبمنتهى الفظاظة. لوقتٍ وجيز، توقف الغزل والمناغاة لحسن الحظّ. وتمنّيتُ من كلّ قلبي أن يعني هذا بأن الكُركيّ سوفَ يُهاجرُ أخيرًا، ونتخلّص منه، ولكن لم يحالفنا الحظ.

بقيَ الكُركيّ في منزلنا.

دامَ مزاجهما العَكِر مدة أسبوع تقريبًا، ولكن في الأثناء تَزلّفت أمي إلى الكُركيّ واستعطفتهُ كي يلينَ بدوره. ولم يكن في الكُركيّ شيءٌ من اللِّين، ولكن بالتأكيد عادت صيحاتهما الحماسية الليلية في غرفة النوم شيئًا فشيئًا، ما زادَ من سخطي وانزعاجي.

في صباح أحد الأيام سألني مايكل على مائدة الإفطار: متى سيرحل؟ كانَ يُلحُّ بالسؤال منذ مدة. في البداية قلتُ له: في القريب العاجل. ولكن، وقتذاك، لم يكن هناك ما أفعلهُ سوى رفع كتفيَّ بأن: لا أعلم!

اتصل ضابط التغيّب عن المدرسة خمس مرات على مدار ذلك الأسبوع. وبما أنَّ أمي لم تكن تكلِّفُ نفسها عناء إقفال هاتفها، وكثيرًا ما كانت تتركهُ مُلقىً بصورة عشوائية في أرجاء المنزل، لذا كنتُ قادرة على إيجاد هذه الرسائل وحذفها. لا أعتقد أن الأمرَ مهمٌّ على أيّ حال. لم تكن أمي مهتمة بموضوع تحصيلي العلمي في ذلك الوقت. كما أنها لم تكن مهتمة بإجراء أيّ محادثة مع شخصٍ آخر غير الكُركيّ.

فَكَّرتُ في الكُركيّ فقط.

وفي الفنّ الذي ابتكرتهُ مع الكُركيّ.

في الفنّ الذي لم يكن مسموحًا لنا برؤيته.

إنَّ وزرَ هذا الوضع الأثيم قد أثقلَ كاهلي. أحاقَ ببطني وبصدري، وما زال يلتفُّ حولي ويضيق أكثر فأكثر حتى بالكاد استطعتُ التنفس.

في يوم الثلاثاء التالي، انطفأتِ الأنوار مجدّدًا، ولكن الوقت كانَ متأخرًا جدًّا على الاتصال بشركة الكهرباء، لذا أعددتُ أنا ومايكل العشاء في الظلام.

كانت الثلاجة فارغة، فيما خلا زجاجةَ خردلٍ مُستنفَدَةً نوعًا ما، وإناءً كبيرًا مِن مخلّل الخيار المفروم الحلو. وكانت هناك أيضًا جَزرتان بائتتان قد استحالتا من الأساس إلى حَبلين. استخدمتُ كلَّ هذه المكونات وانتويتُ اعتبارها نعمةً بأن لا شيءٍ منها سيفسد أثناء الليل. بحثتُ في حجرة المؤونة للعثور على شيء لأطعم أخي، ولي أيضًا ولأمي فيما لو أكَلتْ. وكانَ أمرًا مشكوكًا فيه.

لم تأتِ أمي لتناول العشاء عندما ناديتها. كانت قد أمضتْ النهار بطولهِ في المُحتَرَف. مع ذلك الكُركيّ. لم تخرج من أجل التّمشي كعادتها. ولم تجلس على كُرسيّها الهزّاز تحت شجرة البلّوط كي تتأملَ الحقول. ولم تعتنِ بالنعاجِ (كان عليَّ فعل ذلك) ولم تكنس المنزل (أيضًا أنا من قامتْ بالمهمة). لم تحتضن مايكل عندما عادَ إلى المنزل، ولم تلاعبْهُ، أو تَدُرْ به وتُخبرْه بأنه فتاها المُفضَّل. وعرضتُ عليه القيام بذلك نيابةً عنها، لكنهُ قال لي إن الأمر ليس سواء، ولم يشعر الشعور نفسه كما لو أنه مع أمي.

- أَمُستعدٌّ أنت لتناول الطعام؟ سألتُ مايكل. ووضّبَ المائدة بِحصائر الطعام التي وجدها.

قعدنا أنا ومايكل على كرسيين بلاستيكيين إلى جوار المدخل الخلفي للبيت. ورحنا نراقبُ الباب، منتظرين خروج أمي منه. ارتعشَ ضوء الشموع في النوافذ.

انتظرنا طويلاً، طويلاً.

ومع أنّ الشمس قد غربت، فاللَّيل لا يزال دافئًا. سمعتُ أمي تضحك في الحظيرة. وسمعتُ صوتًا آخر، لقد كان نواحُ الكُركي يرتفع وينخفضُ. بدا رجُلاً يومًا إثر يوم.

أو ربما شيئًا آخر. ثمة قصة عن ذلك. لطالما قصَّها عليَّ أبي.

سمعتُ أمي تقول غير مرة: اقتربنا كثيرًا يا حبيبي. أوشكنا على الانتهاء.

قرقر بطن مايكل. ولم يعد في وسعنا الانتظار أكثر. جلبتُ عشاءنا إلى حيثُ الكراسي. أكلنا أنا ومايكل طبقين من الفاصولياء المطبوخة، ولحمَ الخنزير المُعلَّب، المغطّى بالمخلل الحلو، مع أكثر بسكويت مملّح وبائت وبلا مذاق يمكن أن يحضرَ على مائدة طعام. وشربنا معه لتطريته «كول آيد»(22) المُعَدَّ في عُلب كرتونية، والتي كانت أيضًا قديمة للغاية حتى قَسَت وصارت متكتّلةً. ولم يكن لدينا سُكَّر، فشربنا العصير حامضًا. ثغت النعاج في الحظيرة. كنتُ قد علفتها لتوّي، لكنها لم تكترث بالطعام. اشتاقت إلى أمي. جميعنا اشتقنا إلى أمي. أنا ومايكل، والنعاج كذلك، تعوَّدنا على إبقاء أعيننا على باب الحظيرة القديمة، انتظارًا لخروجها.

في خاتمة المطاف، وقد خيّم الظلام تقريبًا، خَرَجت رفقة الكُركيّ وسارا في الفناء. اتّكأت عليه، وكانَ الجزء العلوي من جسدها مُلتفًّا جزئيًّا حول جناحيه، ورقبتها مُستندة إلى رقبته. كانَ جسمها ضامرًا، وسروالها الجينز مُعلّقًا فوقَ عظام وركيها البارزة. بينما كانت خطوتها خفيفة وهشّة، كما الطير.

وعلى حين غرّة، خلّصَ الكُركيّ نفسه منها، وأعرضَ عنها، وراحَ يُنقّب عن الجَداجِد والضّفادع في الأعشاب الضّارة. واصلت أمي المشي عبر الفِناء بخطوات مترنّحة، ولكن في منتصف الطريق بين الحظيرة وباب المطبخ، تعثّرت وسقطتْ على الأرض مَغشيًّا عليها.

- أمي! صرختُ، وأنا أركضُ خارجةً من باب المطبخ. لم يَرفّ للكُركيّ جَفن. الشيء الوحيد الذي بدا أنهُ أثار أعصابه هو صوت طائرات الدّرون المحوِّمة فوق الحقل على الجانب الآخر من السياج. كلما اقتربت الطائرات نفشَ ريشهُ وَصاحَ بشدَّةٍ. كانَ معظمُ جناحِهِ قد تعافى بحلول ذلك الوقت. وعندما يبسطُ جناحيه بالكامل، فإنَّ أحد الجناحين كانَ يتدلَّى قليلاً. ولم يجعله هذا أقلَّ إثارة للإعجاب.

كانت أمي قد نهضت على ركبتيها عندما وصلتُ إليها. فركت وجهها وهزّت رأسها.

قالت بنبرة غامضة: لا تقلقي بشأني يا عزيزتي. لا أعلم حقًّا ما الذي اعتراني هذه الأيام. ثَنت ظهرها ومدّدتهُ، مثلَ القطة. كانت لديها جروحٌ على أصابعها في بعض الأماكن، وقد أُغلقَ الجلد بلاصق في أماكن أخرى. سالَ الدم من جرح مفتوح في راحة يدها. كانت مصابة بخدوش في ذراعيها، وجروحٍ في كتفيها. ثَنَت جذعها إلى الجانب، فرأيتُ جرحًا عميقًا فوقَ وركها اليسرى، وقد خاطتهُ بإحكام، باستخدام خيط وردي اللون. وكانت لديها هالاتٌ سودٌ تحت عينيها. وضعت يديها الواهنتين على كتفيَّ بينما هي تستعدُّ لرفع جسدها إلى الأعلى. تطلَّب الأمر منها بضع محاولات.

قلتُ وأنا أنظرُ للكُركيّ شزرًا: أستطيع أن أخبرك ما الذي اعتراكِ بالضبط.

- يكفي! قالت وهي تترنَّح محاولةً الوقوف على قدميها. وضعتُ ذراعي حولَ خصرها وأمسكتها بإحكام. كانت مهزولة بالغة الخفّة، حتى ظننتُ أنها قد تطيرُ بِأقلِّ نَفخة.

- ماذا سيقول أبوك إن سمعك تتحدثين هكذا؟

- إنه ليس أبي.

- سنرى. قالتْ أمي وقد طَفَت على شفتيها ابتسامة مُتساهلة ناعسة. خَارَت ساقاها لدقيقة. تشبّثت بي كما تتشبّثُ كَرمةٌ بِشجرةِ بلّوط. بلا وزنٍ كانت، مثل أوراق الشَّجر الجافة.

قلتُ بنبرة حازمة: أمي، أنت في حاجة إلى تناول الطعام.

ردّت بابتسامةٍ ليّنة: أيتها الفتاة السخيفة، لديَّ...

فأجبتها على نحو نهائي وقاطع: الحبُّ ليس كافيًا يا أمي. أنتِ مصابة، وضعيفة بسبب الجوع. رجاء تناولي الطعام. اضطربتْ مِشيتها. وأشاحت بوجهها عني – واذهبي أيضًا إلى متجر البقالة يا أمي! لا يمكن أن يستمرَّ الوضع على هذا المنوال. خزائننا خاوية تقريبًا. مايكل في السادسة من عمره فقط، وهو في حاجة إلى الغذاء. ملعقة من زبدة الفول السوداني ليست وجبة فطور مناسبة لِصبيٍّ صغير.

وعلى ما يبدو هذا الكلام هزَّها، وأيقظها من ذهولها. تشنَّجَ جسدها. وكانت النظرة التي حدجتني بها قاسية فاحصةً. ثم قالت، وقد أمسى، صوتها فجأة مُتيقِّظًا ويائسًا، بنفس القدر: طفلي جائع؟

وتفكَّرتُ في كيفية الرَّد على هذا السؤال. قلتُ: حسنًا، ليس جائعًا في اللحظة الراهنة. لقد تناول عشاء دونَ المستوى، إلَّا أنه طعام على أي حال، وهو شبعان الآن. هو بخير حاليًا. ولكنه سرعان ما سيجوع يا أمي. يجب عليك الذهاب إلى المتجر. أو اذهبي أوّلاً إلى المصرف ثمّ إلى المتجر. أنت لم تبيعي أي شيء، وليس بمقدورنا العيش... وحدّقتُ إلى الكُركيّ. مهما اعتقد ذلك الأحمق أنهُ يُقدِّم إليك. لا يمكنك العيش على الحبّ. مستحيل.

قالت أمي: لا تكوني وقحة.

فأجبتها من فوري، بقسوة أكثر مما تعمّدتُ: أنا صادقة فيما أقول. لو كانَ لأمي ريش لَنَفَشتهُ. حاولتُ تهدئة نبرة صوتي. قلتُ: اسمعيني، هناك حفلٌ أو تجمّعٌ فَارِهٌ يُقام الآن في أحد النزلين. نسيتُ أيّهما. ثمة سيارات لامعة في كلّ مكان، وسُيّاحٌ يلتقطون صورًا لأتفه الأشياء بكلّ معنى الكلمة. ربما ينبغي لي أن أرى ما إذا كانَ هناك أحد يسأل عن عملك. أو بإمكاني التواصل مع الأشخاص الذين أبدوا اهتمامًا بنشرتنا الإخبارية. ربما لدى أحد الرغبة في رؤية ما تصنعينه في المُحتَرَف. أعني. المشروع الجديد. وإن كنتِ في غاية الانشغال، فيمكنني الترتيب...

صاحتْ أمي، مثل طائر، وصَفَعت يديَّ لإبعادهما عنها. وهمستْ: هذا ليس من شأنك! وأرجَعَت بصرها صوبَ الحظيرة. ثم قالت بِنفورٍ: ولا تكوني فظّة وقليلة التهذيب. ليس كلُّ شيء للبيع. إنَّ الفنّ، الفنّ الحقيقيّ تحديدًا موجودٌ فقط لإحداثِ التغيير. ويُعتبرُ فنًّا حقيقيًّا، فقط عندما يُحدِثُ تَحوُّلاً في الصَّانع والنّاظرِ وفي كلّ أحد. إن طبيعة التعامل المادي لما تقترحينه يثيرُ اشمئزازي.

ونظرتْ إلى الكُركيّ في الخلف. ثمّ تجاوزتهُ إلى الحقول الفسيحة المترامية الأطراف، وإلى السّماء الأرحب. وتنهّدتْ قليلاً.

- أمي. قلتُ وأنا أضغطُ ببراجم أصابعي على فمي لثوانٍ، كي أكبحَ نفسي عن مقولة شيء قد أندم عليه لاحقًا. إن الطبيعة المادية لاقتراحي هي، بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، الوسيلة التي رأيتكِ تتكسّبين فيها لقمة العيش طوال حياتي. وتفرّستُ فيها. كانَ وجهها صفحة خاليةً من التعبير. أحقًّا لم تفهم ما قلتهُ؟

- أنتِ فنّانة يا أماه. تبتكرين الفن، وتبيعينه. فالفنُّ صنعتكِ. الناس تبتاعُ الفنَّ. لطالما ابتاع الناسُ الفنّ. منذ متى. منذ أيام الرومان أو شيء من هذا القبيل. ماذا دهاكِ على أيّ حال؟

زمّتْ شفتيها مُستنكرةً، وقالت: هناك أشياء لا تُشترى بالمال ببساطة.

تبدّى لي ذلك الجنون بعينهِ، لذلك اعتزمتُ تجاهله. ساعدتُ أمي في الدخول للمنزل وأجلستها إلى الطاولة، ووضعتُ أمامها وعاءً من الفاصولياء المخبوزة وشرائح لحم الخنزير والمخلل الحلو والبسكويت المملّح. حَدَّقت أمي إلى الطعام كما لو أنها لم ترَ شيئًا كهذا طوال حياتها.

قلتُ: كُلي يا أمي. وقعدَ مايكل في حجرها. جرَّب أن يُطعمها بملعقة، كما لو أنها طفلة رضيعة. ابتسمتْ وتظاهرت بِلعقها، غير أني لمحتُها وهي تلفظها في منديل. لا بدّ وأن مايكل لاحظ ذلك أيضًا، لأنهُ كفَّ عن المحاولة.

انجرفت عينا أمي نحو صورةٍ فوتوغرافية عتيقةٍ على الحائط. ثلاثة أزواج مع زوجاتهم، اصطفُّوا جميعًا في صفٍّ واحدٍ، وارتدوا ملابسَ من أجل يوم زفاف مشترك. ابتسمت بِمرارة وأسًى وهي تُمرّرُ كسرة بسكويت مملّح من شَفتها إلى خدّها. أمسكتها بين إصبعيها مثلَ سيجارة.

- انظري كم كانت جميلة جدة والدتك. قالت وهي تومئُ بجبهتها إلى الصورة في المنتصف.

كانت جدة والدتي أحد الزوجين الواقفين في المنتصف، وبنصفِ عمر الرجل المتجهم المُمسِك بكتفها. كانَ الرجل أصلعَ. وكانَ وجهه مُتهيِّجًا من أثر شفرة الحلاقة، فبدا عليه الاستياء والعبوس. أمّا كفّاهُ فكانتا كبيرتين، كما كانَ فارع القامة ومفتولَ العضلات. ومن ناحيةٍ أخرى، كانت جدّة والدتي صغيرة القدّ. دَقيقة العَظمِ، ووجنتاها مُشرّبتين بالحُمرة ولها ابتسامةٌ خجلى. لم يكن لديها فكرة عما سيأتي بعد ذلك. لم تستطع أمي أن تحوّل بصرَها عن اللوحة. أطالت النظر فيها. كانت عيناها داكنتين توّاقتين عميقتين ومُلتمعتين. كما لو أنّ بؤبؤي عينيها قد غَطَّيا كامل قزحيَّتيها. هل بدت عيناها كذلك دومًا؟

- كانت جميلة جدًّا. قلتُ وأنا أشطفُ المقلاة.

تنهّدت أمي: مَكَثت زمنًا طويلاً بما يكفي لتربية والدي وعمَّتي. أنشَأتهُما وَرعَتهُما مدةً كافية لتُجنِّبهُما الأخطار. خلالَ تلك الأيام في المزرعة، كان في إمكان المرأة أن تتنفّس الصُّعداء فقط عندما يبلغُ طفلها الخامسة. عندما تعلم أن بمقدور صغيرها مواصلة العيش على الأرجح. بعد أسبوع على بلوغ عمتي سن الخامسة، ظلّت جدتي مستيقظةً طوال الليل وهي تخبز الخبز وفطائرَ اللحم وتطهو قدورًا من الفاصولياء بما يكفي لإطعام الجميع لمدة أسبوعين على الأقل. كَتبَتْ تعليمات حولَ كيفية تَقليب الأجبان، وإعداد برطمانات لحم الخنزير المملّح، وطريقة حفظ الأغذية المأخوذة من الحديقة. وكيفية إبعاد الفئران عن صندوق حفظ الطحين. والحفاظ على العجين المخمّر(23) نشطًا وسليمًا. وعن تغذية جميع أفراد الأسرة في فصل الشتاء. ثمّ ذَهَبت إلى الخارج. تَوَقَفت لحظةً للتلويح بالوداع. وماذا بعد؟ طارتْ بعيدًا. هكذا ببساطة.

ضغطت أمي بيدها على قلبها. ورفعت اليد الثانية إلى شفتيها، وأَرسلَتْ قُبلةً إلى المرأة في الصورة.

فَقطّبتُ.

قلتُ: ليس هذا ما سمعتهُ يا أمي. سمعتُ بأنها قفزت إلى عربة قطار شحن، ولم تنزل منها حتى بَلَغت «سان فرانسيسكو»، حيثُ عاشتْ هناك بضع سنوات تحت تأثير إدمان المخدرات، وَقَضَت نحبها في بيت دعارة أو بيت للمخدرات أو في الشارع. على الأرجح في الشارع.

لطالما عَجَّلَ أهل البلدة إلى إخباري بما ظنّوا أنهم يعرفونه عن تاريخ عائلتي.

هزّت أمي رأسها بالنفي. وقالت: لا، تلكَ مجرَّد حكايةٍ تُروى. يَطيبُ لهذه البلدة دومًا اختلاق الحكايات الجامحة والمبالَغ فيها. لم يكن يقفزُ أحدٌ إلى عربات الشحن في تلك الأيام. وكانت المعيشةُ في «سان فرانسيسكو» مُكلِفةً آنذاك. علاوة على ذلك، تلك الحكايةُ متحيّزة ضد المرأة تحيُّزًا متأصِّلاً بعمق ولا يمكن إصلاحهُ، ما يجعلها مشبوهةً من أوّل وهلة. بيتُ دعارة «يا عيني!».

أَسنَدت خدَّها إلى يدها، وثَبَّتت نظرها على الصورة. أعلمُ ماذا حدث حقًّا. كانَ والدي هناك وشهدَ الحادثة بأمِّ عينه، ولم ينسَ ذلك قطُّ. لقد طارتْ بعيدًا. كانت أمّه... ثمّ لم تعد كذلك... كانت وميضًا أبيضَ، خفيفًا ناعمًا، وهي تتركُ المزرعة من خلفها. استحالتْ ريشًا وأجنحة. متخفِّفة من كلِّ قيد. وَمَضَتْ إلى سمواتٍ لا يحدُّها زمنٌ.

ثمّ أَرخَت أمي بصرها إلى الأرض قائلةً: «امرأةٌ محظوظة».

(22) مسحوق كول-آيد أو كولايد (١٩٢٧): علامة تجارية أمريكية لمسحوق شراب تابع لشركة كرافت هاينز (فودز حاليًّا).

(23) العجين المتخمر، Sourdough: تُستخدم لصناعة خبز العجين المتخمر. يُحضر بواسطة تخمير العجين باستخدام العصية اللبنية الطبيعية والخمائر. ولخُبز العجين المخمر «الساوردو» مذاق حامض نسبيًّا ليس موجودًا في أنواع الخبز الأخرى. كما أنه يحتملُ التخزين لمدة مطولة مقارنة بأنواع الخُبز الأخرى.

١٤

في وقتٍ لاحقٍ، من تلك الليلة، بعدما أخلدَ مايكل إلى النوم، خرجتُ من المنزل، وسِرتُ تحتَ النجوم. في تلك الليلة كانت هناك حفلةٌ في الجانب الآخر من البلدة. كان بوسعي أن أتكبّد عناء التسلّل من نافذة غرفة نومي، مثلما يفعل الآخرون عندما يغادرونَ بيوتهم خلسة، متجاوزين وقتَ خروجهم المسموح فيه، مُتَّجهين نحو بؤرةٍ حيثُ المشروبات الكحولية الرديئة، والموسيقى الهابطة، والخيارات السيئة. أولئكَ الذين يتفقد أهاليهم واجباتهم المدرسية، ويُدثِّرونهم في أسرَّتِهم، ثمَّ يتأكدون من توفُّر أطعمة طازجة في الثلاجة غير الصَّلصات القديمة. أولئك الذين لستُ منهم.

من جهتي، كانَ في وسعي ترك الباب الأمامي مفتوحًا على مصراعيه، ولم تكن أمي لتلاحظ بأني غادرتُ المنزل. جَلَست أمّي والكُركيّ إلى طاولة المطبخ، لا يقولان شيئًا، ولا ينظران إلى شيء. مررتُ بجوارهما وخرجتُ من الباب، لأمشي تحتَ سقفٍ من النجوم. لم يَلْحظَاني إطلاقًا.

بصراحةٍ، لم أكن الطفلة التي تُحبّذ الذهاب إلى الحفلات بِكثرة، ولم أرَ حقًّا جدوى التقرّب من أي شخص في مدرستي الثانوية بصورةٍ خاصّة. بالكاد أتذكر وجوههم. ولكن كانت هناك احتفالية ونارٌ مُضرَمةٌ في الهواء الطلق، وبدا ذلك لي حَسَنًا، وعرفتُ بأنه سيتوفّرُ الطعام كذلك، بالإضافة إلى المشروبات الكحولية الرديئة، وكنتُ جائعة أيضًا. وعلاوة على ذلك، قدَّرتُ أني سأتمكن مِن تخبئة شيء في جيوب سُترتي العميقة لإحضارها إلى المنزل من أجل مايكل.

كانت النجوم ساطعةً، والعشبُ مُخضلاً بالندى، وكانت طائراتُ «الدرون» تئزُّ عبر الحقول. وقد تكثَّف هواء النّهار الرطب وتحوّل إلى بردٍ ليليٍّ شديد. ارتجفتُ تحت سُترة أبي الميدانية[24] العتيقة. كان عليَّ ارتداء سُترة صوفية أيضًا.

تَجمّعَ الأطفالُ في بقعة مُقفِرة على الطرف الآخر من البلدة، محصورة بين صومعة الحبوب القديمة وأطلالِ مصنعٍ قديم لتجهيز لحوم الخنازير، هُجِرَ قبل أن تولد أمي حتى. غَطَّتْ قطعة الأرض تلك حشائش طويلةٌ، دَكّتها أقدامُ حَشدٍ مِن المراهقين (وعُصبة من الراشدين المُريبين المُتطفّلين). تلألأتْ حلقةُ النار في المنتصف، وأحاطتْ بها وجوهٌ مُعظمها مألوفة، ومُضَاءة بوهج النيران السّاطع. وفي أحد الأركان كُدِّست مخلّفات مخيّم للمُتشرّدين. كان التكَتُّل الزراعيّ قد ضغطَ على البلدة قبل بضعة أسابيع لإخلاء المخيّمات، وهو ما حدثَ كثيرًا في الأوقات التي تسبق موسم الزراعة. زعموا أنّ ذلك من أجل أسباب تتعلّق بالسلامة، إلَّا أن الجميع عرفوا أنها ليستْ سِوى محاولةٍ لتجنُّب أيّ دعاية سيئة محتملة إذا ما مزّق نظام حَرثِهم «الذكيّ» المرتكز على الطائرات المُسيَّرة شخصًا عن غير قصد، عندما

لا يعلم ذلك الشخص أنه يجب عليه البقاء بعيدًا عن الحقل. ومن المفترض أن هذه المحاريث تتمتع بخاصية التوقف التلقائيّ في حال استشعرت بكائنٍ حيّ ومُتحرّك في طريقها. لكننا جميعنا رأينا أشلاء القيوط والثعالب والطيور المحروثة والمتناثرة في الحقول، وجميعنا عرفَ الحقيقة تمام المعرفة.

كانت الحفلةُ مُملَّةً كما توقعتُ. دَوَّت الموسيقى المُضجِرة من مُكبِّرات صوتٍ جَشَّاء مُثيرة للأعصاب، بينما أطلقَ مجموعة من الأولاد من فريق البيسبول ألعابًا نارية (موجّهةً نحو خزّان الحبوب القديم وليس إلى الحقول، لأنه إن اصطدمت الألعاب النارية بواحدة من طائرات الدرون التابعة للتَّكتُّل الزراعيّ فسوف يكون الجميع في ورطة). كانت النار مُضيئة ودافئة، لكن الخشب الذي أحرقوه عُولِجَ بمادة جعلت النار تتوهّج بألوان غريبة، وأطلَقَت أبخرةً أصابتني بالصُّداع. أخذتُ شرابي وتوجهتُ إلى تخوم الحقل، حيثُ اتكأتُ هناك على قطعة قماش بالية من القنّب، وبي نشوةٌ طفيفة، ورحتُ أتأمل النجوم المتلألئة عندما انسلّ إلى جواري صبيٌّ ارتدى سُترة «ليترمان»(25) رياضية، ومرّر يدهُ على فخذي، جيئةً وذهابًا. كانَ الجوّ باردًا، وكان هو دافئًا، فقلتُ في نفسي ولم لا. كانَ زميلي في فصل التاريخ، وَعَيِيتُ أن أتذكر اسمه! وإلى الآن لم أتذكره. كنتُ متأكدة أن اسمه من مقطعٍ واحد، جاك، ربما؟ أو غَسّ. وضع جبهتهُ فوقَ أذني، وَطَفِقَ يحكي لي عن طائرات الدرون التي استولى عليها هو وزملاؤه في الفريق الرياضي وأعادوا استخدامها لأغراض مختلفة، في الغالب للتجسّس على الفرق الأخرى ومعرفة أسرارهم. الأمر الذي بدا لي عبارة عن وضع جهدٍ كبير في شيء لا يهمُّ كثيرًا. وأخبرني أيضًا عن الطائرة التي سوف يصنعها ذات يوم ليطير بها حول العالم. وأسهبَ في الحديث، واستفاض. وفي كل الأحوال لم أشجعه، لكني سأعترفُ بأن ذلك كانَ مريحًا، مجرّد وجوده الرطب والدافئ والصادق، ولم أكن مستعدةً للعودة إلى المنزل بعدُ. أبقيتُ نظري صوبَ الحقول. كانت هناك طائرات درون أكثر من المعتاد، فموسم الحِراثة قد اقترب. حَامَت أضواؤها في الظلام، وتحرّكت ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا، مُلتهمةً العالم بأعينها.

ووجدتُني أفكرُ في الرجل الذي وجدناه في حظيرة الأغنام في شهر يناير. الرَّجل الذي أُصيب بطريقة ما بإحدى تلك الطائرات المُسيَّرة. الشخص الذي استهلّ تنهّدات أمي وسلوكها الحالم. لو أنه لم يظهر في المقام الأول، أكانت أمي ستُغرَم بذلك الكُركيّ الأخرق؟ على الأرجح لا، فكّرتُ. ظَنَّت الطائرات المسيّرة في الجوّ. ظلّت أعلى من ارتفاع الإنسان. ولم تكن حتى كبيرة الحجم. فكيفَ يا تُرى أُصيبَ تلك الإصابة البليغة على أيّ حال؟ ظلّ الأمر غير منطقي.

نظرتُ إلى الفتى. في تلك اللحظة كانَ قد تحدّث دونما انقطاع لمدة عشرين دقيقة. ولم أكن منتبهةً إلى كثيرٍ مما قاله.

قلتُ: مهلاً!

أعتقدُ أنها كانت المرة الأولى التي استخدمتُ فيها صوتي أثناء ذلك التفاعل بأكمله. صُعِقَ بقوّة، ورفعَ يدهُ عن فخذي. قال: آسف، آه يا إلهي، آسف جدًّا. أكانَ هذا غير مقبول بالنسبة إليك؟

لوَّحتُ لهُ بِأن لا بأس. وقلتُ: لا عليك. أنا لا أهتم حقًّا. يمكنك فعل ما تشاء. لكن لديّ سؤال لك.

ولم يأخذ كلامي على أنه دعوة إلى وضع يده من جديد على فخذي، وبدا مَشدوهًا نوعًا ما، ومغلوبًا على أمرهِ من حقيقة سؤالي. استأنفتُ كلامي على أيّ حال: أما زالت لديك طائرات الدرون تلك؟ تلك التي سرقتها وأعدتَ توضيبها لاستخدامات مختلفة؟

ظلَّ الفتى مَشدوهًا. قال: ماذا؟ ونظرَ إليّ بغرابة، كما لو أنه لم يخطر له بأني أعرف كيف أتكلم. أو أنني استوعبتُ أي شيء ممّا قاله. هل ظنّ بأن الفتيات مجرد أوعية فارغة؟ من المحتمل.

- طائرات الدرون؟ حسن، بالتأكيد. ما زال لدينا بعضها. ثمَّة واحدة في الشاحنة.

- هل شاحنتك هنا؟ أتعني، هي هنا الآن؟

قال وهو في حيرة من أمره: بالطبع، إنها هناك. وأشارَ إلى فوضى من السيارات على الجانب الآخر من البُقعة المهجورة.

أومأتُ برأسي: عظيم! ثمّ رفعتُ نفسي على ركبتيَّ وأمسكتُ يدهُ. لنذهب إلى هناك ونحضرها.

ارتفع حاجباه، وبدأتْ وجنتاه تتوردان. وَدَنا مني: تريدين أن... أوه. نعم فهمت الآن... تريدين أن... ثمّ مالَ إليَّ مُقتربًا. وخفضَ صوتهُ بطريقة مُوحية. تُريدين رؤيةَ داخل شاحنتي؟ ودسَّ وجههُ في مُنحنى عنقي.

- لا. قلتُ مُبتعدةً. نهضتُ وابتسمتُ في وجهه، ابتسامة ساطعة صارمة وحادة، كنجمة. ثمّ أردفتُ: إطلاقًا، أعني. يمكنك البقاء في شاحنتك إن أردت. أو المكوث هنا. لا فرق. أريدُ طائرة الدرون فقط. أين مفاتيحك؟

ذاهِلاً، قادني الفتى إلى شاحنتهِ، ومُتحيّرًا أكثر، ناولني طائرة الدرون التي غيّرَ وجهة استعمالها.

سألتُ: أما زالت تعمل؟

أجاب: نعم. إنها غبية بحيث يمكن اختراقها بسهولة. أعتقدُ أن هوراس، هو المسؤول عن نظامها الأمني، وقد فَشِل في مهمته.

دَلّني على البُقعة داخل الطائرة التي تستلزمُ دَقّةً سريعة لتشويش اتّصالها بالمحورِ المركزيّ. المنفذ الوحيد المطلوب قَطْعهُ. ومن ثمّ كيفية ربطها بهاتفي، حتى أتمكن من توجيهها وفقًا لخرائطي. استغرق منه الأمر خمس دقائق لإخباري بكل تلك المعلومات. انزلقَتْ ذراعهُ حولَ خصري، وعلى وجهه ابتسامة وَلَع، ووجدت أصابعَهُ طريقها إلى ما تحت قميصي. ثم قال وهو يقتربُ مني أكثر، وأنفاسهُ في شَعري، ويدهُ فوق صدري على نحوٍ مُحرج: إذن، ألا تريدين... أقصد... تعلمين... منذ أن أتينا إلى هنا... وأنتِ جميلة جدًّا! لديَّ بطانيةٌ في المقعد الخلفي. نستطيع، هممم، أن نفعل شيئًا ما... وأشارَ بيدهِ إلى مقصورة الشاحنة مثلَ نادلٍ يُرشدُ الزبائن إلى مقاعدهم.

أجبتهُ بمرحٍ: قطعًا لا. ولكن شكرًا على طائرة الدرون... مارك؟

قال: هذا ليس اسمي حتى. لقد عرّفتك بنفسي ما يقارب المئة مرة. أحقًّا لا تتذكرين؟

رفعتُ الدرون إلى صدري، ولففتُ ذراعيَّ حولها. قلتُ: حسنًا، سررتُ بلقائك مجددًا. ومشيتُ إلى المنزل دونَ أن أنظرَ خلفي.

لم يكن يمزح. لم تكن طائرات الدرون سهلة التوصيل فحسب، بل كانت أيضًا سهلة الاستخدام. والذي كانَ منطقيًّا، بما أنَّ هوراس هو المسؤول عنها. قعدتُ على السطح، وأرسلتُ الطائرة في مهام، وأخذتُ أراقبُ ما تشاهدهُ الطائرة من خلال العارض على شاشتي. أرسلتُها إلى حظيرة الأغنام، وعلى امتداد حدود المزرعة.

كما أرسلتُها إلى مُحترَف أمي. كانَ الباب موصدًا، ولكن النوافذ كانت مُشرعة والستائر مُفرَّقة. لم يكن بالإمكان إدخال الطائرة إلى المكان، لذلك وجهتُ الكاميرا للنظر عبر الشاشة المعدنية. لم أستطع رؤية الكثير. كانت هناك فوضى في الداخل. أكداسٌ من الملابس والحطام. كرسيّ مكسور. طاولة مكتب مغطّاة بِطلاء سميك منسكبٍ، تناثر فوقهُ الريش. أكوام من المناديل الورقية المستعملة مبتلّة بالدماء. المنسوجة الجدارية مُعلّقة على الجدار البعيد. لم أتمكن من الحصول على رؤية واضحة. لكن شيئًا ما جعلني أشعرُ بالقشعريرة. لا أعلم لماذا.

أعدتُ توجيه الدرون إلى المنزل، تفقدتُ النعاجَ مرة أخرى (وكانت في خير)، ثم تركتها تحوم قبالة غرفة أمي. أعدتُ ضبط زاوية الرؤية.

همستُ: أوه!

كانت ستائرها مفتوحة، وكانت تعجُّ بالريش. تكدَّسَ على الأرض، وَغَصَّت بِهِ الخزانة. كانت طاولة الزينة الأثرية الخاصة بأمي (في الأصل هدية زفاف لإحدى الجدَّات الكُبْرَيَات) مطمورةً بالكامل. انفجرت أدراجها بالريش. تمددت أمي في سريرها، والملاءة ملفوفة من حولها كما الكفن. كانت مستغرقة في النوم. واستلقى رجلٌ إلى جانبها. عاريًا بالكامل. منفرج الذراعين والساقين. كما لو أنهُ صاحب المكان. قرّبتُ الصورة على وجهه. لقد كان رجل حظيرة الأغنام.

كانَ هو بكلِّ تأكيد.

ألقيتُ نظرةً على الساعة. كانت ٢:٥٤ بعد منتصف الليل. نظرتُ إلى أمي عن كثب. ثمَّة كدمات على كتفيها. وفي أنحاء من ظهرها. وجرحٌ كبير خلف أذنها. وخدوش محفورة بعمق في ساقيها. كان من الهيّن تغطيتها كلها. إخفاء الجروح. تجنّب النظر إلى وجهها. لم أعلم حينها أن مثلَ هذه الخطط متوقعة. الآن فقط عرفتُ ذلك.

عدَّلتُ وضعية طائرة الدرون، وزاوية الرؤية، ثمّ نظرتُ إلى وجه أمي نظرة أقرب. كان خدّاها مستمرّين في الهُزال. وكذلك شَعرها الذي بدا وكأنهُ يتساقط في كُتل. لم تكن على ما يرام، أدركتُ ذلك بِغصّة وانقباض قويّ في حلقي. وبينما كنتُ أدقّقُ النَّظر إلى أمي، تحولت الساعة من ٢:٥٩ إلى ٣:٠٠. اِرتجَّ السّرير. شهقَ الرجل. و...

وياللعجب! العنق الممدودة. و...

أوه! ونتوءُ شَفتيه من الوسائد، إلى كمّاشتين، إلى نَصلين. و...

أوه! انفجار الرّيش والمَخالب. و...

أوه! اتّسعت عيناه، ثمّ امتلأتا دهشةً، ثم غضبًا. كيف صارتا خضراوين كما سيقان الذُّرة، صارتا حمراوين، ثمّ سوادوين، ثمّ حادّتين، ثاقبتين، ماضِيتين. فتحَ منقارهُ. بسطَ جناحيه. وتحوّلَ صوتهُ من نواح رجلٍ حزين إلى صياحِ طائرٍ مذعور دونَ فاصلٍ بينهما ولو للحظةٍ. استحالَ واحدهما الآخر. ربما كانَ الأمر سيانِ منذ البداية. الرجل هو الكُركيّ والكُركيّ هو الرجل!

استيقَظَت أمّي. استدارت نحوَ الطائر، ووضعت راحتيها على وجههِ. استطعتُ رؤيتها وهي تتحدّثُ بسرعة، وأصابعها تَتخلّل ريشهُ وتُمسّدهُ. محاولةً تهدئتهُ وطمأنته. كما لو أنهُ طفل. ثمّ مطّطَ الكُركيّ جسدهُ إلى الخلف واشرأبَّ رافعًا طرفَ منقارهُ نحو السّقف. دارَ دورتهُ، بُسرعة وضراوة، مثلَ نابضٍ مشدودٍ ومُدوّر بأقصى استطاعة، وصفَعَها صفعةً قويّة على جانب رأسها، فجرحَ فروة رأسها. رأيتها تنكمش مرتعدة اتّقاءً، متكوّرة في وضعية الجنين،

بينما الكُركيّ يفردُ جسده وهو ينهضُ من السرير، ويتجهُ نحو الباب. رأيتهُ يغادرُ دونَ أن يلتفت.

آه، قلتُ لنفسي، عندما سَكَنَ اصطِخابُ عقلي. لقد فهمتُ.

(24) السُّترة الميدانية أو «الفيلد»، Field Jacket: سُترة عسكرية في الأصل، لكنها راجت فيما بعد كلباسٍ مدني. عادة ما تكون هذه السترة خفيفة الوزن ومتينة وذات جيوب متعددة.

(25) سُترة ليترمان، Letterman Jacket: نوع من السترات في الولايات المتحدة، تُمنح عادة لطلاب المدارس الثانوية أو الجامعات الذين حققوا إنجازاتٍ رياضية أو أكاديمية متميزة.

١٥

ماذا فعلتُ بالمعلومات؟ وماذا كانَ في وسعي أن أفعل؟

إن أردتُ قول الصّدق؟ لا شيء.

لم أُخبِر مُعلّميَّ.

لم أُخبِر المرشدة الاجتماعية.

لم أُخبِر أحدًا.

ماذا أقولُ على أيّ حال؟ رَوَت عائلتي قصصًا عن نساءٍ صرنَ طيورًا من قبل أن تولد أمّي. حَشَوا رأسَ أمّي بهذهِ القصص. ما كانَ ينبغي لأحدٍ أن يُصدّقها. أنا لم أصدّقها بالتأكيد. كانت مجرّد قصصٍ. كانت هناك احتمالات أخرى لما يمكن أن يكون قد حدثَ لتلك النساء، احتمالاتٌ أكثر منطقيةً. الشّائعات المستمرة، على سبيل المثال، والتي تداولها سُكان البلدة بشأنِ الخيارات الطّائشة التي اتّخذنها نساء عائلتي، حيثُ تفقدُ الأمهات سيطرتهنَّ على الأخلاق والعِفّة والتعقّل والاحترام، ويهربنَ إلى مراتعِ الجنس أو المخدرات، ويَتخطّفهن الموت لأسباب من المريع ذِكرها، كل تلك الشائعات بدت أكثر قابلية للتصديق.

ومع ذلك. لم أخبر أحدًا قطُّ بما فعلتهُ أمي في وقتها وانتباهها. ولمَ عساي أن أفعل؟ لم يكن ذلك شأنَ أحدٍ سِوانا. ولم أخبر أحدًا أيضًا بأنني أنا من تولّيتُ أمر رعاية أخي الصغير، وأنا من كنتُ أطعمهُ، وأغسلهُ، وألبسهُ، وأكيلُ له كمية الدواء المناسبة عندما يمرض. في النهاية، كانَ شأنًا عائليًّا. لم أخبر أحدًا قط بأني أنا من كنتُ أطهو العشاء، وأوازنُ دفتر الشيكات، وأتيقن من أن المشترين يدفعونَ ما يدينونَ لنا بهِ. كنتُ أنا من يتصل بشركة الكهرباء، وأتوسل من أجل تمديدٍ لتسديد الفاتورة. لم أخبر أحدًا، أبدًا، عن الغرباء الذين تردَّدوا إلى منزلنا. عن الأشياء التي فعلوها. لم يكن الكُركيُّ أول من تسبَّب لها بالجروح والكدمات. كان فقط أوّلَ من مكثَ طويلاً بما يكفي للتسبُّب لها بهذا الكمّ الهائل من الأذى.

كانت أمي تنام مع كُركيّ، والذي كانَ أحيانًا رجلاً. أو هو رجل وكُركيٌّ في بعض الأحيان. كانت أمي تنامُ مع شخصٍ يضربها. أمران بدا كلٌّ منهما فظيعًا ولا يمكن –خطأ كبير– الحديث عنهما. إذن، لمن كنتُ سأقول؟ لم يكن هناك أحدٌ لأحكي له. لذا لم أخبر أحدًا بالأمر.

وعوضًا عن ذلك، قمتُ بما كنتُ أقوم به دومًا. اعتنيتُ بمايكل. أثنيتُ عليه من أجل واجباته المدرسية، واصطحبتهُ في نُزهات مشيًا على الأقدام، وفي بعض الأحيان بحثنا عن

الضفادع (ليس لإحضارها إلى المنزل، كانَ ذلك بالتأكيد بمنتهى الخطورة على تلك الكائنات الصغيرة المسكينة). رسمتُ معهُ وغنَّيتُ لهُ، وكانَ يساعدني في بعض الأوقات في تربية أغنامنا. كانَ في منتهى النحول. وخفيفًا جدًّا. كانَ على أمي أن تكسبَ المال. كنا في حاجة إلى مزيدٍ من المواد الغذائية. إلّا أني لم أعرف كيف أطلب منها ذلك أيضًا.

ماذا لو عادت المرشدةُ الاجتماعية؟ وماذا لو لم يعجبها ما ستراه؟ ماذا إن أخذ أحدهم مايكل منا؟ ماذا كنا سنفعل حينها؟

واصلتُ تَطيير الدرون ليلاً. والمراقبة. حاولتُ استخدامها لرؤية ما في داخل محترف أمي، حيثُ كانت تعملُ والكُركيّ لساعاتٍ وساعات. بيد أنها أبقت الستائر مُسدَلةً والباب مقفلاً. تمكنتُ من رؤية خياليهما فقط في الأمسيات عندما تُضاء المصابيح، ويُخيّمُ الظلام. استطعتُ أن أرى ظلّ أمي فقط قبالة النَّوْل، أو كليهما وهما يرقصان ويدوران في الأرجاء. ولم أستطع فهم ذلك. لم أستوعب إلّا في وقت متأخر.

أرسيتُ طائرة الدرون على سقفِ الحظيرة، وركّزتُ مُقدّمتها وكاميرتها الرئيسية على الفِناء. حصلتُ على لقطات للكُركيّ بهيئةِ الرّجُل وهو يتجوّل ليلاً. دومًا بلا ملابس. رَوَّعَ النعاجَ. سحبَ الضفادع من البركة وازدردها كاملةً. استلقى على العشب وحدّقَ إلى السماء. لم أعرف ماذا يريد. لم أهتم. أردتُه أن يرحل فقط.

مرّ أسبوع. دوّنتُ ملاحظات. صنعتُ رسومًا بيانية. حتى أنني رسمتُ جدولاً. حاولتُ إخفاء كل هذه الأمور عن مايكل الذي أخذ يَتتبعني من غرفة إلى أخرى بعينيه الواسعتين الرصينتين. فعلتُ ما في وسعي للحفاظ على تغذيتهِ وتوفير الطعام له. وبذلتُ قُصارى جهدي للمحافظة على المنزل نظيفًا ومُرتَّبًا في حال عادتِ المرشدة الاجتماعية. لم أستطع حماية أمي من الكُركيّ، ولم أكن واثقة بأني سأكون قادرةً على حماية نفسي، ولكني كنتُ واثقة كلَّ الثقة بأني سوف أحمي مايكل. ولن يمسّه الكُركيّ بِسوء. استخدمتُ جسدي دِرعًا، وكنتُ أُخرِجُ مايكل من المكان كلّما دخلهُ الكُركيّ مُتبختِرًا في مِشيته. غرستُ نفسي دومًا في المنتصف بينهما، كالجدار.

في مساء أحد الأيام، أخذتْ أمي مايكل بيدهِ، وصعدا الدّرجَ معًا لقراءة القصص. بقيتُ في المطبخ كي أغسل الصحون.

بعد مدة وجيزة، دخلَ الكُركيّ. تخلّصَ من الحذاء أخيرًا، لكنهُ ظلّ يرتدي النّظّارة والقبّعة. تَهادى عبرَ غرفة المعيشة، ووقفَ عند المطبخ. سوّى ريشهُ وهو يُقلِّبُ فيَّ النّظرَ من الأعلى إلى الأسفل. تجاهلتهُ عَمدًا وعدتُ إلى الماء والصَّابون، مُستمتعة لدقيقة بالحرارة والفقاقيع. شعرتُ بالكُركي وهو يُمعنُ النظر إلى مؤخرة جسدي، نظراتهُ مثل الإبر في جلدي. أدرتُ وجهي قليلاً حتى يرى عبوسي، فلمحتُ رجلاً من زاوية عيني.

ذلك الرجل.

قفزتُ.

صرختُ.

جذبتُ أقرب قِدر طهي، ثمّ دَوَّرتهُ ولوّحتُ به فوق رأسي مثل السّاطور.

سوى أنهُ لم يكن رجلاً على الإطلاق. كان طائر الكُركيّ. هززتُ رأسي وطَرفتُ بِعيني بشدّة. ثم كانَ الرجل مرة أخرى. لا. لقد كانَ الكُركيّ بكل تأكيد. وأخذ يتبدّل. وَمَضَ إقبالاً وإدبارًا، فإذا هو رجلٌ وليس رجلاً، كُركيٌّ وليس كُركيًّا. ولم يتحرّك إلَّا للانتقال من حالةٍ إلى أخرى. أكانَ يستمتعُ بذلك؟ بدا مُستمتعًا بذلك الوضع. ابتسمَ، وكشّرَ عن أسنانهِ المفقودة. كان الهلعُ لا يزال يخفقُ في صدري، زفرتُ أنفاسي بهدوءٍ، أوه. أغمضتُ عينيَّ بإحكام دقيقة أو اثنتين. وعندما فتحتهما، كانَ الكُركيُّ واقفًا في المكان عينه بالضبط، وكانَ كُركيًّا بالكامل. كما لو كانَ يَتحدّاني أن أُعلِّق بشيءٍ ما. لطيور الكُركي مناقير ولا يمكنها الابتسام، غير أنهُ بدا مُبتسمًا ابتسامة عريضةً على أيّ حال. رمقني الكُركيّ بنظرةٍ شَهوانية. كانت عيناهُ تُدقّقُ في كل تفصيل في جسدي.

خاطبتهُ باحتقار: ابتعد!

صاح صيحةً مُتهتكة.

قلتُ معنِّفةً: لا أريدك أن تكون هنا بعد الآن! وأمسكتُ منشفة أطباقٍ مبلّلة ورميتها في وجههِ مباشرة. وعَلِقَت هناك، مُبتلّة ويقطرُ منها الماء على امتداد منقاره القاسي. لم ينتفض حتى. ولم يَفهْ بشيءٍ، لم ينعقْ حتَّى، لكنني ظللتُ أسمعُ كلامه الصامت «لن أذهب إلى أي مكان، يا حلوتي»، كما لو أنهُ صدحَ بها.

استدرتُ خلفي تاركةً الأطباق في حوض الغَسل، وسِرتُ مُسرعةً إلى غرفتي. فتحتُ النافذة، وتزحَّفتُ نحو السطح، واستلقيتُ على المنحدر، أشاهدُ غروبَ الشمس فوقَ الحقول. طَنّت طائرات الدرون، وَهَدَرَت المحاريث، وَجَهَرت الأغنام بشكواها، وتَنقّلت العصافير على أطراف المحاصيل، وانطلقت في الأعالي مُتجنّبةً حركة الحرّاس الآليين الدؤوبة، جيئةً وذهابًا، جيئةً وذهابًا.

لحظتذاك أدركتُ لم يعد في وسعي انتظار مغادرة الكُركيّ من تلقاء نفسه. إن أردت التخلص منه، فعليَّ القيام بذلك بنفسي.

١٦

بين عَشيّةٍ وضُحاها، تحوّلت مدرستي الثانوية إلى مزيجٍ مُتنافرٍ من الأصوات والتجهيزات ولوازم حفل التخرّج الراقص. لافتاتٌ ومُلصقات وشرائطُ طويلةٌ رفيعة، وإعلانات الخطط والنوايا العامّة المزعجة على نحوٍ لا يُطاق. أعدَّ الطُّلاّبُ اللوحاتِ الراقصة، وفقرة غناء «كابيلا» دون مصاحبة آلات موسيقية، وكان من ضمن الإعدادات استعراض طائرات مُسيَّرة صغيرة، كلّ طائرة تحملُ زهرة (فُصِلَ الولد صاحب الفكرة، فطائرات الدرون مناسبة في الأراضي الزراعية، وليس في الحرم المدرسي).

الفتى من تلك الحفلة على أطراف البلدة (مارك؟ آليكس؟ راندي؟ غَسّ؟ لم أستطع التذكر، حتى بعد ساعةٍ من الحفلة عجزت عن التذكر) طلبَ مني في منتصف المطعم المدرسيّ أن أكون مُرافقتهُ في حفل التخرّج، بينما زملاؤه من فريق الركض جثوا على رُكبهم يفرقعونَ أصابعهم ويُدندون أغنيةً من «ويست سايد ستوري»(26)، الأمر الذي بدا مُربكًا، في نظري، وغير ملائم. قلتُ وأنا أرشقُ الوجوه المحدِّقة إليَّ بنظرةٍ حَادّة: أكانَ يجب أن يكون هذا علانيةً؟ لأنهم عرفوا من أكون. وعرفوا من تكون أمي. لم أكن فتاةً من النوعية التي يطلبها الفتية الجذّابون رفيقةً لهم في حفلاتِ التخرج الراقصة. ولم تكن واحدةً من عائلتي كذلك. على طاولات الغداء توقَّدتْ أعينُ المتفرِّجين. الأذرع مكتوفة. والشِّفاه مَزمومة. «مَن تظنُّ نفسها؟» ولم يقل أحدٌ هذه العبارة. إلّا أن هيئاتهم، جميعًا، هَتَفتْ بها. إحدى الفتيات قلَّبت عينيها ممتعضةً. تأمَّلتُ الفتى. لم يكن مُستحَبًّا ما كانَ عليَّ القيام به، وشعرتُ بالذنب حيال ذلك. كانَ فتًى لطيفًا إلى حدٍّ مقبول، وهو ينظرُ إليَّ بتلك الطيبة البلهاء. تنهّدتُ وهززتُ رأسي.

قلتُ: حسنًا. لا بأس. ثم أقولها علنًا، لا. لن أرافقك في حفل التخرج. أنا مدهوشة بصراحة لأنك اعتقدت بأني سأقول نعم. والآن، ألا تتمنى لو أنّك وجّهتَ هذا الطلب إليَّ سِرًّا؟

نهضَ، وَنفَضَ الغبار عن رُكبتيه، وَنَعَتني بالعاهرة، وكذا فعلَ اثنان من أصدقائه، ولكن لم يكن لديَّ مشكلة. أنا واثقة بأن أشخاصًا آخرين نعتنوني بأوصافٍ أسوأ، هَمسًا. لقد طُلِبَ إليَّ هذا الطلب من قبلُ ثلاث مرات، على نحوٍ أقلّ علانيةً، وكانَ جوابي هو نفسه. لا أعلم ماذا كانوا يتوقعون. لم أكن فتاةَ حفلاتٍ راقصة.

في وقتٍ لاحقٍ، من ذلك اليوم، أخبرتني معلمةُ الرياضيات بأنه يجب عليَّ تقديم تقرير إلى الإدارة.

- لأجل ماذا؟ سألتُ. لم أكترثْ بالأمر حقًّا، لا سيَّما وأن ذلك يعني أن أغادر الفصل. كنتُ قد علَّقتُ حقيبتي على كتفي فعلاً، وبِصددِ التوجه نحو الباب. كانَ فضولي حيالَ ما قالته لا

يعدو عن كونه رد فعل غير إراديّ، دونَ اهتمام مُتعمَّد.

رفعت المعلمة كتفيها غير مباليةٍ، وشرعت توزعُ أوراق الاختبار الذي أجرتهُ لنا في اليوم السابق. اعتبرتُ ذلك إشارة إليَّ كي أتوارى عن الأنظار، ولا أتحقَّق من العلامة التي حصلتُ عليها في الاختبار. إذْ لم يكن لديَّ توقعات كبيرة.

حينَ وصلتُ إلى مكتب الإدارة، أرسلني السكرتير إلى الغرفة الخلفية، حيثُ جلس المدير مع المرشدة الاجتماعية التي زارتْ منزلي سابقًا. كانَ شعرها لا يزال مرفوعًا ومُثبَّتًا فوقَ رأسها في تصفيفة جذَّابة. وكانت لا تزال ترتدي النظارتين الوامضتين بضياءٍ أخضرَ على الطَّرفين. ابتَدَرتني بابتسامةٍ.

قالت بأسلوب دقيقٍ ومَرِح: أنا مُلزَمة قانونيًّا بإبلاغك بأنني أُسجِّلُ هذا التفاعل.

قلتُ وأنا أُجيلُ نظري مِن أحدهما إلى الآخر: حسنًا، لستِ مُضطرَّةً لإخباري في كلّ مرة. أعلمُ مُسبَقًا الغرضَ مِن نظّارتيكِ.

كانَ المديرُ رجلاً صارمًا ذا وجه كالح، يرتدي سُترات ثقيلة حتى عندما يكون الجو دافئًا. لم ينظر إليَّ، بل صَبّ كل اهتمامه على انتزاع الجلد الزائد حولَ أظفاره. غالبًا ما أخبرَ الطُّلاب أنَّ الغاية من المدرسة مساعدة أولئك الذين اختاروا مساعدة أنفسهم. من الجليِّ أنني كنتُ شخصًا لا يأبه به كثيرًا لأنه من الواضح أنني لم أبذل كثيرًا من الجهد لمساعدة نفسي. انتقلَ إلى إصبعه التالية. لم يكن لديه ما يقوله.

فتحتِ المرشدةُ الاجتماعية حقيبة أوراقها: من المفترض أن تكون والدتُك هنا. اتّصلنا بها. وأرسلنا إليها رسائلَ إلكترونية. ورسائل في البريد. ومع ذلك ارتَأتْ أنهُ من المناسب عدم الحضور.

رفعتُ كتفيَّ غير مكترثة: حسنًا، إنها مشغولة.

نظرتِ المرشدة الاجتماعية إلى عيني، نظرةً ثاقبة مُلِحّة: هل هي مشغولة الآن؟ بماذا؟

أخفضتُ بصري إلى الطاولة، وتمتمتُ: أنت تعلمين كيف تسير الأمور. الفنَّانون... ثمّ تَهَدّجَ صوتي.

قالت بتروٍّ: نعم، الفنّانون.

أبقيتُ عينيَّ على يديَّ المطويّتين.

جلسنا صامتين دقيقةً. تَكَّت الساعةُ على الجدار بصوتٍ عالٍ. من مكانٍ ما في رواق قريب، صرخَ صبيّانِ وزمجرا. وانبعثَ صوتٌ واضح لِقبضة تَلكُمُ وجهًا، صوتهاً أعلى من المتوقع. جَفِلتُ.

تَنحنَحَتِ المرشدةُ الاجتماعية: وعلى ما يبدو فإنَّ بروس قد مَرَّ بقربي منذ رأيتكِ المرة الفائتة.

أفزعني قولها هذا. انتفضَ رأسي. قلتُ: ماذا؟

تَشاغلت المرشدة الاجتماعية ببراءة في أوراقها، وقالت: آه، أتعلمين، أنا أحبُّ مواكبة الفنون المحلّية. لقد اشتركتُ في نشرتهِ الإخبارية.

أنا كتبتُ النشرة الإخبارية بالطَّبع. كنتُ عمومًا أُرسلُ نشرة إلى المشتركين مرة أو مرتين سنويًّا. عندما تكون أمي مستعدّة لبيع قطعةٍ من أعمالها. لكنني كنتُ مرتاعة بشأنِ دَخلِ أمي، لذلك أرسلتُ نشرتين مُتتاليتين للحصول على مُشتَرين مُحتَملين مُتحمِّسين، على أملِ البدء في حربِ مزايدة وتحقيق سعر بيعٍ أعلى. ولم أكن قد رأيتُ القطعة بالتأكيد، لمحتُها لمحًا فقط. لذلك، استخدمتُ أكثر لغةٍ مُتَّسِمة بِالغلوِّ والغرابة خطرت على بالي. كتبتُ أن المنسوجة الجدارية أعجوبةٌ مُعقَّدة، وكتبتُ، بأنَّها إعادة تقييم مُحيّرة للزمان والمكان، ودحضٌ غامض للدُّنيوي والعادي. ووصفتُ كيف جعلت هذه المنسوجة الراهبات يُلقينَ بمسابحهنَّ في القمامة، وجعلت المُجرمين العُتاة يَرونَ الله. كانت المنسوجة نقطة التقاء الوجود والعدم، المعرفة والجهل؛ رحلة لا نهائية إلى فم الكون. وغيرها من الترَّهات. لا أستطيعُ حتى أن أتذكرها كلها. ضغطتُ زرّ الإرسال فحسب. وابتلعَ المشتركون الطُّعم. تجاوب الناس مع الثناء القلبي الصادق والرموز التعبيرية «الإيموجي» السخيفة ورسوم التهنئة المتحرِّكة. تَلقّيتُ اثني عشر عرضًا لشراء المنسوجة قبل معاينتها. بأسعار جعلت فكّي يتدلى من الدهشة. أريتُ هذه العروض لأمي. إلَّا أنها رفضت الأمر بِرمّته.

- أوه! قلتُ، ولم أرفع بصري بعد، محاولةً إبعاد حُمرة الإحراج المُتسلِّلة إلى عنقي ووجنتيَّ
- ذلك، هممم، رائع جدًّا... لا أظنُّ... أني أعرفُ أنهُ أصدرَ نشرة إخبارية. وابتلعتُ ريقي، ثمّ أضفتُ بصوتٍ خافت: يا للعجوز الطيب بروس.

لم تتبدّل قسمات المُرشدة الاجتماعية إطلاقًا. اعترضتني بالقول: نعم، يمكن للمرء أن يقول ذلك. انظري، لديَّ النشرة هنا. ثمَّ فتحت النشرة الإخبارية على حاسوبها اللوحي ولكنها لم تُرني إيّاه. وبدلاً من ذلك راحت تمرّرُ عبرها مؤشر الكتابة كما لو أنها القطعة الأدبية الأكثر إقناعًا وإثارة للاهتمام التي عبرت مكتبها.

وتمكنتُ من القول: هل ثمّة ما يثير الاهتمام؟

أمالتِ المرشدةُ الاجتماعية رأسها جانبًا. وألقتْ نظرة عليَّ. لكنها تغاضت عن السؤال.

- نشرَ بروس صورًا للنعاج. بدتْ إحداهنَّ مريضةً، مسكينة. يتعين على والدتك استدعاء الطبيب البيطري. وانظري هنا. إنها صورة لوالدتك أمام نوْلها –تعرّفتُ على الصورة، كانت منذُ عامٍ مضى– ألاحظُ أنه لا توجد صورةً جديدة لها. أو لكِ. ولكن توجد عدة صور لأخيك. ها هو يرسمُ في الحظيرة. وهنا يتسلَّق شجرةً، خطرٌ واضح. وهنا يخوضُ في البركة، مع عدم وجود شخص بالغ يشرفُ عليه، والذي كانَ في الواقع مفزعًا. وهناك إلى جانب الحظيرة طائرٌ كبير بصورة مُقلِقةٍ. شخصيًّا، أنا ألقي اللوم على المواد الكيميائية الغريبة التي يرشّونها على تلك الحقول. أواثقةٌ أنت بأنه من الآمن وجود طائرٍ بهذه الضّخامة بالقُرب من طفلٍ بهذا الصِّغَر؟ ثمّ أطفأت إضاءة شاشة حاسوبها اللوحيّ، ووضعتهُ على الطاولة. لا بدَّ وأن بروس يحبُّ التقاط الصور لأخيك الصغير، أليس كذلك؟ عزيزتي، أعتقدُ أنهُ يجب علينا التحدّث حول هذا الأمر. أسألكِ مرة أخرى، من يكون هذا الرجل؟ إن كانَ موظّفًا، أنا متأكدة من أن والدتك تحققت من معلوماته وماضيه، صحيح؟ بما أنَّه يتواصل مع طفليها. «طفليها». هل يزوركم كثيرًا؟

- في الواقع لا. إنه يأتي فقط لجلبِ... بعض اللوازم. كما تعلمين. من أجل الفنَّ. ولاستلام مُستحقّاتهِ الماليّة. لأنه حتمًا موظّف.

- هل هو موظف حقًّا؟ هل أنت متأكدة؟ إنه غير مُدرَج في السجلات الرسمية. لدينا بيانات والدتك المالية...

ابتسمتُ: المعذرة. هو متطوّع. وأنت تعرفين ما يُسمّى. عامل مستقلٌّ. تدفعُ أمي إليه نقدًا لأنه يكره البنوك – وقد انطبقَ هذا الكلام على أمي، فقد كانت تكرهُ البنوك.

تَنهَّدت المرشدة الاجتماعية بِعمقٍ. وأراحت جبهتها لمدة وجيزة على رؤوس أناملها، ثم ضغطت يديها معًا.

قالتْ: اسمعي! إنَّ الدولة تتخذُ إجراءاتٍ صارمةً ضدّ اليافعين المُتغيّبينَ عن المدرسة. إنْ كنتِ من الطَّلَبة الأكبر سنًّا، فالجميع سوف يعتبركِ حالةً ميؤوسًا منها، ولن يهتمّوا لأمرك. لن يتدخل النظام في هذا الشأن. لكنك لست من الطلاب الأكبر سنًّا. أنت في الخامسة عشرة. ما يعني أننا نكترثُ لأمركِ. ثمّ أغلَقَت حافظة الأوراق، وَأردَفَت: أنا أهتمّ.

لم يقل المدير أي كلمة حتى تلك اللحظة. أخذ يُقلّب شاشة هاتفه. ويستغرقُ في الضحك بصوت خفيض بين حين وآخر.

تَنحنَحت المرشدة الاجتماعية. خلعت نظّارتيها، ونظرت إلى وجهي نظرةً ثابتة ومباشرة: عندما لا تُجيبُ الوالدة على مكالمة هاتفية واحدة، ولا تتجاوب مع محاولاتنا المتكرّرة

للوصول إليها – بما في ذلك الزيارات المنزلية! في منتصف النهار! وأعلم تمامًا أنها رأتني واقفةً هناك، وأنا لا أعرف ما الذي كانَ يَجري في تلك الحظيرة، لكني غير راضية عنه، وها قد ساورنا القلق بشأنه. منذ تحادثنا أنا وأنت آخر مرة، تَغيّبتِ عن سِتّ حصص دراسية.

قلتُ: ليست سِتَّ حصص. مُعلّميَّ ليسوا صادقين.

لقد كانت سِتّ حصص ولا ريب. في الحقيقة، تغيّبتُ عما يقارب عشر حصص، غير أن معلمة الفنون لم تكن بارعة في تفقّد الحضور.

قال المدير: إنني أتعرض للإهانة بهذا الكلام. ولا يزال يتجنَّب النظر إلى الأعلى. أبقى عينيه على هاتفه، وراح يمرِّر إصبعه على الشاشة. نظرَ إلى الساعة. ثمّ: المعذرة، يا سيّدتيَّ، يجب أن أجيب هذه المكالمة. نهضَ وغادر الغرفة. وقَرَّبَ هاتفه الذي لم يرنّ إلى أذنه. وقال لِلاأحد: مرحبًا؟ وأغلقَ الباب من ورائه.

قالت المرشدة الاجتماعية بِخفّة: أعتقدُ أنّ مُعلّميك يقولون الحقيقة. ووضعت ملفّها في حقيبتها. كما أني أعتقدُ أنهم كانوا صادقين أيضًا حينما أخبروني بأنك فتاة ذكية وقادرة، وبأنك تُقاسين ظروفًا صعبة، وبأن مستقبَلاً واعدًا بانتظارك إن أحسنتِ استغلال الفرصة.

قلتُ وأنا أعقدُ ذراعيَّ على صدري: ظروفي بخير. ولم أعد راغبة في النظر إليها. ولم أُرِدها أن تنظر إليَّ - وسيكون مستقبلي ما سوف يكون. المستقبل ليس شيئًا يمكن لأيّ أحدٍ التنبؤ به على أيّ حال.

أعلمُ بأني كنتُ مراهقة متجهّمة. عرفتُ ذلك حينها. لكني لم أبالِ بذلك.

تَنَهَّدَتْ – حسنًا، لقد رأى السيد باترسون أنهُ من المناسب عدم العودة، ما يعني أن هذا الاجتماع يجب أن ينتهي. القانون قانون. وقفت وفتحت الباب، تاركة جسدها مرئيًّا لأي شخص قد يمر بالجوار. تَمَهَّلت دقيقةً، كما لو أنها تَتدبّر ما تريدُ قوله: سأخبركِ بشيءٍ، وأريد منك أن تصغي إليه جيّدًا، لأنه على قدرٍ كبير من الأهمية. إن شعرتِ بوجود مشكلة أو خطأ ما في المنزل، إن ظننتِ أن الأشخاص غير آمنين، إن اعتقدتِ بأن هناك شخصًا يتهدّد أمن الآخرين، فالمسؤولية تقع على عاتقك بالإبلاغ عن ذلك. وكَفّت عن الكلام. وعيناها جادّتان قلقتان – أفهمتِ ما أقول؟ إنها مسؤولية. ولستِ مسؤولة عن حلّ المعضلة، ليست لديك المقدرة. أنتِ طفلة. ليس في إمكانك حلّ أي شيء بنفسك. ولكن ثمَّة أنظمة معمول بها صُمِّمَتْ لحل هذه المشكلات. يمكنك أن تكوني الحافز الذي يضع هذه الأنظمة قيد التنفيذ؛ الشَّرارة التي تُشغِّلُ المُحرِّك. أو في إمكانك الجلوس والسَّماح لنفسك بأن تكوني ضحيةً. لديك الخيار هنا. هل تفهمين؟

نظرتُ إليها. علمتُ ماذا حدث للأطفال عند توريطهم في تلك الأنظمة. وعلمتُ إن تمَّ هذا الأمر، فمن المستحيل السماح لي ولمايكل بالبقاء معًا. كيف يمكننا ذلك؟ صبيٌّ جميل مُحبّب له عينان واسعتان وفي سن السادسة سيكون أسهل بكثير أن يُعهَد به إلى أُسرةٍ مِن أن يُثقَل بِأختهِ التي تُكثِر الغياب عن المدرسة، والبالغة من العمر خمس عشرة سنة. لم أكن حمقاء. عرفتُ كيف تسري هذه الأمور.

كنتُ في حاجة إلى الاعتناء بأخي مايكل. كانت تلك مهمَّتي. وكانَ عليَّ الاعتناء بأمي. فلقد وعدتُ أبي.

مَن عساي أكون إن لم يكونا لديَّ؟

حاولتُ أن أكون لطيفةً، أعتقدُ أنني كنتُ كذلك. قلتُ: أفهمكِ جيّدًا. وأقدّرُ مساعدتكِ. حقًّا أشكرك.

وابتسمتُ للكاميرا.

أجابتني المرشدة الاجتماعية بإيماءة، واستدارت خارجةً من المكتب.

(26) ويست سايد ستوري، قصّة الحيّ الغربي، West Side Story: قد تكون إشارة إلى =

= فيلم رومانسي غنائي يحمل العنوان نفسه من إصدار سنة ٢٠٢١ وإخراج ستيفن سبيلبرغ، مقتبس بدوره من مسرحية موسيقية عُرضت في برودواي سنة (١٩٥٧) تحملُ العنوان نفسَه، من تصميم جيروم روبينز وموسيقى ليونارد برينشتاين وكلمات الأغاني لستيفن سوندهايم، من كتابةِ المسرحي الأمريكي الشهير آرثر لورنتس الذي استوحاها بدورهِ من مأساة «روميو وجولييت» لشكسبير.

١٧

من الواضح أنها كانت مسألةً حسَّاسةً ودقيقةً للغاية. مع وجودِ القطع المتحركة. كلُّ إجراء يؤدي بالضرورة إلى ردِّ فعل، فإن لم تكن مُستعدًّا لهُ، فيمكن لردّ الفعل العكسي أن يُطيح بك أرضًا، ويُفضي بك إلى التراجع عن كلِّ ما حاولت تحريكه. أو ما هو أسوأ من ذلك، أن يتركك في مكانٍ أسوأ من الذي بدأت منه.

أو في مكانٍ مختلف.

وفي بعض الأحيان، من الصعوبة بمكان التكهن بالاختلاف.

لقد عرفتُ كثيرًا من الأطفال الذين وقعوا في شَرَكِ وكالات الخدمات الاجتماعية في بلدتنا، الراعية والحريصة والمتّسمة بنواياها الحسنة، إلَّا أنها مفرطة غالبًا في التعويض. تَفرَّق الأشقَّاء. وأمسى الآباءُ مُتخبِّطين لا مَرسى لهم بلا أطفالهم، ويقترفونَ خياراتٍ أسوأ من تلك التي أفضتْ بهم إلى تلك الفوضى في المقام الأول.

ما عرفتهُ هو الآتي: أمّي كانت في حاجة إليَّ؛ أخي كانَ في حاجة إليَّ؛ وكنتُ في حاجة إلى كلٍّ منهما. كانت تلك حقائقَ بديهيةً لا مِراء فيها. وعرفتُ أن بيت المزرعة ملكنا، ولطالما امتلكتهُ عائلتُنا. وكانَ يجب أن يكون لنا. تشهدُ بهذا كلُّ صورة فوتوغرافية لجيلٍ مضى منذ زمنٍ بعيد، الرجال بوجوههم القاتمة، وكل شيء. عرفتُ أنَّ أمي كانت في حاجة إلى القيام بأعمالها الفنية، وأن أخي مايكل في حاجة إلى أمي. هذه هي الخيوط التي ربطتنا جميعًا بالأرض. بمجرد أن يُقطع خيطٌ واحد فقط، ننقذفُ جميعنا في فراغ الفضاء. لا أعرف كيفَ عرفتُ كلَّ هذا. لكني عرفتُ.

تَفكّرتُ في اعتقاد أمي المحموم أن النِّساء في المزرعة تنبتُ لهنَّ أجنحةٌ، ويَطِرنَ بعيدًا. لو كانَ اعتقادها حقيقيًّا (ولم أكن مقتنعةً به نهائيًّا)، فما سببُهُ؟ قالت إنهنَّ ينتظرن حتى يبلغَ أطفالهنَّ سنّ الخامسة ويكونوا بمنأىً عن الخطر، ثمّ يطرنَ بعد ذلك بعيدًا عن المزرعة. «عن المزرعة». ولكن يومذاك، عندما بلغتُ الخامسة، مرضَ أبي. وظلَّ مريضًا. وعندما بلغ مايكل الخامسة كانَ أبي قد ماتَ، ولم يكن هناك أحد ليعتني بنا. أمِن أجل ذلك بَقيَتْ؟ أم كانت المزرعة هي من جعلت الأمهات يَتغيّرنَ؟ والتي كانت فرضية مثيرة للاهتمام، بما أنَّ المزرعة لم تكن ملكنا. لم تعد ملكنا. ما من أحد امتلكَ المزرعة. ولم يعد أحد يُسيّرُ شؤون المزرعة ويعتني بها. باتت ملكًا للآلاتِ والمسَاهِمين. لم يعد أحدٌ يُحبّها. ولم يعد أحد تربطهُ بها أيّ روابط. الأشياء الوحيدة التي طارت عبرها هي الطائرات المُسيَّرة بأعينها الإلكترونية الباردة. لم يكن هناك شيء ليطير منهُ المرء. لا ريش. ولا أجنحة. فقط ذكرى

المزرعة كما كانت عليه من قبل – مكان يمكننا رؤيته ولكن لا يمكننا لمسه. ربما كان هذا هو سبب عدم قدرتها على الطيران بعيدًا.

هززتُ رأسي. كانت فكرة جدليّة. لم يكن أحد يطير في أي مكان، باستثناء ذلك الكُركيّ.

لكن، كانت هناك تفاصيل يجب الانصراف إليها أوّلاً.

جلستُ في غرفتي، مُصغيةً إلى صوت أمي وهي تُغنّي لمايكل. كان صوتها رقيقًا وهشًا كخُشبِ الشتاء. طلبَ منها مايكل أغنيةً بعدَ أغنيةٍ. عندما توقّفَ الغناءُ، علمتُ أنه استسلمَ للنَّوم. أنصتُّ إلى وقعِ خطواتها عبر الرَّدهة، ولكن كانَ من الصَّعب سماعها. فقد خسرتْ كثيرًا من وزنها. أمسَت ظِلَّ نفسها. بالكادِ أَحدَثت صوتًا على خشبِ الأرضية. سمعتُ صوتَ جسدٍ يُرْطَمُ بالجدار. شهقَت أمّي. ثمّ عَلت قهقهةٌ عصبيّة.

قالت: أنا أعمل عليه. أقسمُ لك إني أعمل عليه.

صوتُ خدشٍ. ثمّ خبطةٌ مكتومة.

قالت: حبيبي، أريدُ هذا بقدر ما تُريدهُ أنت. أنت بالطبع تعرفُ ذلك الآن.

صفعةٌ حادة. وصرخة مكبوتة.

كانت كلماتها خافتةً كما لو أنها تتحدّثُ في يدها: غدًا على ما أعتقد. سنعلمُ إنْ كنتُ على المسار الصحيح مع هذا النهج بحلول الغدِ. ثمَّ سأتبّع الغرز، وأتبّع الخيط. كالعادة تمامًا. أنا متفائلة وأشعر أن كلّ شيء يسير على ما يُرام. ويريد أن يكون، أتفهمني؟

نَخَرَ صوتٌ آخر. همهمةٌ خفيضة. نظرتُ إلى ساعتي. كانَ منتصف الليل. لقد كانَ الرجل ثانيةً. رأيتهُ في عين خيالي وهو يرفعها بين ذراعيه. رأيتها وهي تطوّقُ عنقهُ بذراعيها. وتمرّغُ أنفَها في خدّه بِرقّة. دمٌ على لحيته الخفيفة. دمٌ في شَعرها. يحملها إلى غرفة النوم، ويوصدُ الباب بابتسامةٍ خبيثة تلتمعُ من ورائه. ويرميها بهدوء على السرير.

ولمدّة قصيرة، على الأقل، لن يشغلا تفكيرهما بالفنّ في مُحتَرَف أمي.

ولكني فكّرتُ فيه.

نهضتُ. وتسلّلتُ خارج غرفتي. مشيتُ عبر الرَّدهة على أطراف أصابعي، وخرجتُ إلى الفناء. أَنَّت أمي. ونَخَرَ الكُركيّ. أو الرجلُ، على ما أظنُّ. عندما كانَ رجلاً، ألم يكن الكُركيُّ أيضًا؟ وعندما كان الكُركيُّ، ألم يكن الرّجلُ أيضًا؟ لا يهم. كانَ سيرحلُ عما قريب.

لم أستطع استخدام طائرة الدرون. كانت النوافذُ مغلقةً، والسَّتائرُ مُسدَلةً. ولكن كان في وسعي استخدام كاميرتي. وكان لديَّ بعضُ الأدوات في صندوق لم أستخدمه منذ مدة طويلة.

سلكتُ طريقي نحو الحظيرة. رأتني النعاجُ إلّا أنها أغلقت أفواهها لحسنِ الحظّ. كانت موغلة في الصمت في الآونة الأخيرة، حزينة فاترة الهمّة ومُكتئبة. وعازفةً عن طعامها. ولم أعرف كم من الوقت يمكنها الاستمرار في ذلك الطريق. وعلى الأخصِّ نيكس. كانت متقدّمة في السن إلى درجة يصعبُ عليها احتمال مثل هذا الإجهاد.

عند باب المُحتَرَف، وضعتُ صندوق أدواتي على الأرض وجثوتُ إلى جانبه.

ثمّ بدأتُ في فتح قفل الباب.

استغرق الأمر وقتًا أطول مما كنتُ أتذكره، لكني بعد بضع محاولات أفلحتُ أخيرًا بإدخال المسامير في مكانها وبفكِّ النابض. وتَبِعَ ذلك طقّة مُرْضيَة، جعلت رأسي يندفعُ من الإثارة والترقب. دفعتُ الباب فَفُتِحَ.

- أوه! همستُ وأنا أضغطُ بيديَّ على قلبي. التقطتُ أنفاسي، وتلعثمتُ وعلقَ صوتي في حلقي، كما لو أن روحي كانت تفرُّ عبر تنهّدات. خطوتُ إلى المُحتَرَف غير عارفة أين أنظرُ أوَّلاً. جثوتُ على رُكبتيَّ، مأخوذةً، مُكتظّةً بجمالِ أمي الوحشيّ، عديم الرحمة. «يا للهول»!

أخرجتُ هاتفي، وبدأتُ ألتقطُ الصُّور.

١٨

يوم ماتَ أبي، قعدتُ في مُحتَرَف أمي، رافضةً الخروج. قرعت أمي على الباب وقتًا خُيّلَ إليَّ أنه طويل، ولكن ربما كانَ لبضع دقائق فقط. توقفت بعد وقت قصير، مُشتكيةً بأن يدها آلمتها من كثرة القرع.

قالت عبر الباب: «أنا ذاهبة للجلوس مع أبيك. مع جثمانهِ. أنا ومايكل وأبيكِ. جميعنا معًا. يجب أن تُعجِّلي. ثمة أناس آخرون قادمون، أيضًا، على الأرجح. وقريبًا. هذه البلدة يا حبيبتي ملأى بالوحوش والانتهازيين. ولكني لن أسمح لهم بالدخول حتى تأتي. يجب أن تأتي وتجلسي يا عزيزتي. يجب أن تكوني حاضرة مع أبيك هذه المرة الأخيرة. إنَّه أمر بالغ الأهمية. سوف تحزنين حزنًا شديدًا فيما بعد إن فَوَّتِ الفرصة».

جلستُ في منتصف الغرفة. طاولة مكتبها على يساري. ونوْلها على يميني. وعَجَلة غزلٍ معقَّدة في الزاوية. تربَّعتُ في جلستي على الأرض. انقلبتْ سلّة مليئةٌ بِبكراتِ الخيوطِ وشِلل الصُّوف، وسقطت محتوياتها على قدميَّ. لم أفهم حقًّا ما الذي كانت تفعلهُ أمي. عرفتُ أنها كانت ترسم. وعرفتُ أنها تحوِّلُ صوف الأغنام إلى خيوطٍ. وأنها تستلهمُ الأفكارَ من رأسها والمشاعر من قلبها والخيوط من البَكرات، وبطريقة ما تحوّلها كلَّها إلى حكاية كبيرة، تتدلّى من السقف وتفيضُ على الجدار الواسع وصولاً إلى الأرض.

قال لي أبي إن النّساجين سَحَرة.

أمّي لم تكن سَاحرة.

ومع ذلك. بَدَت الفكرة سحريّة بعض الشيء.

حدَّقتُ إلى رُسوم أمي. كان هناك كثير منها على المنضدة، إلى درجة أنها جُمِعت وكُدِّست في أكوام، وتَطايرَت على الأرض مثل أوراق الشَّجر. كانت في رسومها أشكالٌ تُشبهني وتشبه مايكل، ونحن نركبُ قاربين مصنوعينِ من الزهور، أو نَتسلّق أعناق أعواد الذُّرة العملاقة، أو نطاردُ الأغنام الطَّائرة. وكان هناك رسمٌ لوالدي، بدا فيه مدفونًا في التربة حتى منتصف جسده، وذراعاه ممدودتان إلى الأعلى، ومُمسِكَتان بطائرٍ يحاولُ باستماتة الطيران بعيدًا. كانَ التعبير على وجه والدي هَلِعًا، متوسِّلاً، تعبير اشتياق وتلّهفٍ وأسىً. تمعَّنتُ في الطائر، كانَ منقارهُ مفتوحًا على اتّساعه، وعينهُ مَوجوعةً حانِقة.

مشيتُ نحو القماش المُتدلّي من السّقف. كانَ هائل الحجم ومشوّشًا وغيرَ مكتمل. استطعتُ تَبيُّن الطفلين في قاربي الزهور الطَّافيين عبر نهرٍ مليء بالقمامة (كانت هناك قمامة حقيقية مَخيطة في الحكاية). كما استطعتُ تَبيُّن بداية الطّائر المصنَوع مِن الريش

الحقيقي، والمخيط على القماش. وأما شكل الرجل فقد حُدِّدَ تحديدًا فقط في تلك المرحلة بواسطة إصبع من الطبشور أبيض اللون. إلى الجانب، مُسدَلة على طاولة عملٍ أخرى، صورة رجلٍ مُشَكَّلٍ من الرُّقَع، ومُغطًّى بالأزرار. بدا جليًا أنَّ أمي لم تُنجز عملها بعدُ.

قَصّ عليَّ أبي قِصصًا عن نَسَّاجين خَاطوا العالم وغَزَلوا الأقدار وسَحبوا خيوطًا لتغيير المصائر. هل كانَ هناك خيطٌ يمكنني سحبهُ لمنعِ موتِ والدي؟ أكانت هناك رُقعةٌ يمكنني تثبيتها لأمنعَ رحيلَ والدتي؟ أطلتُ النَّظر إلى المنسوجةِ حتى أدركني اليأسُ أخيرًا.

تعذَّر العثور على أجوبة.

فتحتُ الباب ومضيتُ لأجلسَ مع أمي وأخي. أمسكتُ يد أبي إلى أن صارت باردة شيئًا فشيئًا.

١٩

أعطاني أبي أدواته قبل أن يموت. أدوات النّجارة أو الآلات أو الإصلاحات بصورة عامة. أدوات مخصّصة للحاسوب. أدوات لفتح الأقفال. إبر معقوفة لإصلاح المفروشات. وسكّين ممتازة من أجل الحفر على الخشب. وبندقية لأغراض مجهولة.

سألته: وهذه من أجل ماذا ؟

- للضَّرورة القصوى فقط. قال لي أبي وهو يضعها بين يديَّ على نحو خطير وجادّ، على الرغم من أنني لم أفهم ما يمكن أن تكون تلك الضرورة.

علّمني أبي كيف يكتب البالغون رسالةً، وأوضح لي كيفية إنشاء موقعٍ إلكتروني بسيط. وعلّمني طريقة استخدام دفتر الشيكات. وكيفية إصلاح المكنسة الكهربائية. ودلّني على طريقة استبدال زجاج النوافذ بنوافذَ مقاومةٍ للعواصف. علّمني أُسس الرياضيات ومفاتيحَ كيفية عمل دفتر الحساب (دفتر الأستاذ العام)، وأسلوب إدارة الأموال ببساطة. وضعتُ صندوق الأدوات تحت ذراعي. قال لي أبي: «في يوم من الأيام، سترين أن كلّ مشكلة عسيرة لها مفتاح. لا تَعي أمُّكِ هذا، ولهذا السبب سوف يتعيَّن عليك التدخل في بعض الأحيان، والاعتناء بالأمور نيابةً عنها. فاحرصي دومًا على معرفة مكان أدواتكِ».

قلتُ: «حسنًا يا أبي».

قال، وفي صوتهِ نبرةٌ مُتوسِّلة: «أمّكِ لا تَفقهُ هذه الأمور. لطالما كانت كذلك. إنها فنّانة. قدماها بالكادِ تَمسَّان الأرض. كنتُ الشَّخص الذي أبقاها مربوطةً بالأرض. والآن هي مهمَّتك أنتِ. وأنتِ صغيرة السّن جدًّا، وهذا ليس من العدل في شيء، ولكن لا بُدّ ممّا ليسَ منهُ بُدّ».

كانَ مُحِقًّا. لم يكن الأمر عادلاً. بيد أني لم أدرك ذلك حينها، ولم أدركهُ حتى وأنا أحمل البندقية من الطابق السُّفلي، وأفتح الصندوق على سريري. ومع أني تَنبَّهتُ إليه الآن، ولكن فات الأوان لإصلاحِ أيّ شيء.

في غرفتي، لَقّمتُ البندقية بِحذرٍ ورويّة، وخبّأتُها في خزانة ملابسي. ثمّ جلستُ إلى مكتبي، ورفعتُ الصور التي التقطتُها للمنسوجة الجدارية على حاسوبي المحمول الخاصّ بالمدرسة، حيثُ أنشأتُ صفحة جديدة على موقع أمي الإلكتروني. كانت المنسوجة هائلةَ الحجم بحيث من المستحيل التقاطها في صورة واحدة، ولا توجد وسيلةٌ لنقل القياس على نحوٍ فعَّال. وبدلاً من ذلك استخدمتُ كلمات وأوصافًا للتعبير عن أهمّيتها مثل: «تجربة غامرة بزاوية ٣٦٠ درجة»، و«حكاية متعدّدة الأبعاد»، و«استكشافٌ مُفجع لِنساء مُحطَّمات،

لمجتمعات مُنكَسِرة، لِعالمٍ تَالف». استخدمتُ كلماتٍ مثل: «تنويريّة»، و«فَتّانة»، و«مُتسَامية». لم يُنصِف أيٌّ مِن هؤلاء القطعة. حمّلتُ صورًا لِتفاصيل صغيرة.

رجالٌ آليّونَ يتقدّمونَ عبرَ حقلٍ أخضرَ، مُخلِّفين الخَراب في أعقابِهم.

رجلٌ في قبضتهِ عُنق امرأة.

منزلٌ مصنوعٌ مِن بتلاتِ الزُّهور.

منزلٌ آخر مصنوعٌ مِن القمح.

ومنزلٌ آخر أيضًا مصنوع من خيطٍ انسلَّ مِن بطّانية طفلٍ رضيع.

رجلٌ آخر بدا مُطرَّزًا تقريبًا بِالكامل مِن الضّوء.

أرنبٌ مصنوع من شرائط فِراء حقيقي (تبادرَ إلى ذهني على الفور غولديلوكس وكوبلاي خان، يا لهما من مِسكينين) –قوائم عضلية، وأذنانِ طويلتان مُستَدِقَّتان، أنفٌ رقيق يَتشمَّم ويستكشف– قفزَ إلى نارٍ بَدَت وكأنها تضطرمُ فعلاً.

لم أعرض عليهم الصورة المركزية. لم أستطع حتى أن أَحمِل نفسي على التقاط الصورة. حتى التفكير في ذلك أفزعني. امرأة كانت طائرًا وامرأة. ورجل كانَ كُركيًّا ورجلاً. وَمَضَا وتغيّرا. صارا في حجم الغرفة. كانَا بالغا الصِّغر بحيث يمكن وضعهما في راحة اليد. وقفا في حديقة، تحت شجرةٍ. وأثناء مشاهدتهما شعرتُ أن الريش يكسوني. وبمشاهدتهما شعرتُ بأنهُ نما لي جناحان. كانَ ذلك مستحيلاً بالطَّبع. فلقد كانا مجرّد غُرزٍ على القماش. لا يمكنهما التَّحول.

ومع ذلك.

«إنَّ الفنّ، الفن الحقيقي، موجود فقط ليُحدِث تغييرًا»، كما قالتْ أمي. «وهو فنٌّ حقيقيٌّ فقط عندما يُحدِث تحوُّلاً في الصَّانع والمُشَاهِد وفي الجميع».

هل غيّرها؟ هل غيّرني؟ وإن كان قد فعل ذلك، هل في إمكاني إيقافه؟

استغرقَ الأمر ساعتين تقريبًا، إلَّا أني أنهيتُ صفحة المزاد. أرسلتُ الرابط إلى قائمة المُشتركين. وَعَيّنتُ الوقت. وكانت والدتي سترفض هذا، لكننا كنا في حاجةٍ إلى المال. كانَ هذا أحسن عمل لها. وكانَ يقتلها.

من الأفضل إرساله إلى مُتَاجِرٍ وليتحمَّل عِبء العَناء المرتبط به.

ضغطُت زر التحميل، ثمّ استدرتُ وكدتُ أصرخ، لأن مايكل كانَ واقفًا إلى جانب باب غرفتي. عيناهُ جاحظتان مرعوبتان.

قلتُ، شبهُ منهارة: يا صديقي! ما الذي أيقظكَ، وماذا تفعل هنا الآن؟

همسَ: يوجد رجلٌ في المنزل.

رَبّتُّ على ساقيَّ، وفردتُ ذراعيَّ. صعدَ إلى حضني وتكوّرَ فيه، وجعلني ألفُّ ذراعي حولهُ. حاولتُ أن أهدهدهُ، لكن صَعُبَ الأمر عليَّ. فقد كانَ مايكل متشنّجًا ومذعورًا. أخذَ يَفُوقُ ويبتلعُ ريقهُ.

سألتهُ، محاوِلةً أن أبدو هادئة: عمّ تتحدث؟

قال مجدّدًا: هناك رجلٌ في البيت. كانَ صوتهُ خفيفًا ومتقطّعًا مثل الصوت الذي تُحدِثهُ فراشات الليل لدى اصطدامها بزجاج المصباح الكشّاف السّاخن في الخارج. أَمَلتُ رأسي. سمعتُ وقع أقدام. أبقيتُ تعابير وجهي محايدةً، آمِلةً ألَّا ينتبه مايكل إلى اشتداد وجيب قلبي. نظرتُ إلى الساعة. كانت حوالي الثالثة صباحًا. إنْ كانَ رجلاً فسوف يتحوّل إلى كُركيّ عمّا قريب.

ما كانَ في مقدوري إطلاق النار على رجلٍ، ولكن كُلّي يقين من أنه في إمكاني إطلاق النار على طائرٍ لَعين.

- لا أعتقد أنَ هناك ما يستدعي قلقك. قلتُ ذلك ونهضتُ. ارتديتُ كنزة سميكة فوقَ قميصي القصير. وانتعلتُ حذائي. مَلّستُ شعرهُ إلى الخلف، وقَبّلتُ جبهته – تعلمُ بأنه يمكنكَ دومًا الاعتماد عليَّ. في أي أمرٍ كان. صحيح؟

أومأ برأسهِ. ومسحَ ما سالَ من أنفهِ بظهرِ يدهِ.

وضعتهُ في فراشهِ، وقلتُ لهُ أن ينامَ. وألَّا يتحركَ من مكانهِ حتَّى أعودَ. وأخبرتهُ بأني أمتلكُ الأدوات اللازمة لحلِّ هذه المشكلة، وما عليهِ سوى إغماضِ عينيه، والانتظار حتَّى يغدو كلَّ شيءٍ على ما يُرام. وقلتُ لهُ بأني سأتفحَّص كلَّ غرفة، وسأحرصُ على إغلاق الأبواب. وقلتُ لهُ بأني سوف أستدعي الشُّرطة إذا رأيتُ أي شيء. ابتسمَ لي وتكوّر في أغطيتهِ، مُغمِضًا عينيه. سحبتُ البندقية من مؤخرة خزانة ملابسي، وحملتُها بحذرٍ شديد خارج الغرفة، وضغطتُ على زرِّ القفل في مقبض باب غرفتي قبل إغلاق الباب من ورائي. لن يمنع هذا الإجراء في الحقيقة أي شخص يرغب في ركل الباب وكسرهِ، ولكنه بالتأكيد سيُبطئهُ.

أسندتُ ماسورة البُندقيّة إلى كَتفي، وأصَختُ السَّمع.

صوتُ أمّي في الفِناء: أعتقدُ أنني هذه المرة قد هيّأتُ كل شيء.

صوتُ رجل: اعتقدتِ هذا من قبل.

صوتُ أمِّي: ولكني على حقٍّ هذه المرة.

تأرجحَ بابُ الحظيرةِ بقوّة، وصُفِق. اندفعتُ عبرَ المنزل بأسرع ما أمكنني.

٢٠

ثمَّة ريشٌ على السَّلالم. وريشٌ في المطبخ. وريشٌ في الرَّدهة. كانَ الباب الخلفي مُشرَعًا. وكانَ هناك ريشٌ على الشُّرفة. وريشٌ متناثرٌ في الفناء. دخلَ فمي. حجبَ عني الرؤية. دوَّمَ الرِّيشُ في الأثير واحتشدَ، ورَفرفَ مع النَّسيم. أزَّت طائرات الدرون فوقَ الحقول. من البعيد، تناهى إلى مَسمعي صوت إقلاع المحاريث. كانت هناك علامات طوال الأسبوع على أنهم سيزرعونَ قِطاعنا قريبًا. من الناحية النظرية، لم يُسمَح للآلات بالبدء قبل بزوغ الشمس بسبب الضوضاء، لكن هوراس شَغّلها دومًا في وقت مبكر، لإحمائها لساعة أو اثنتين. قال إنَّ هذا ما كانَ والدهُ يفعله، عندما كان يزرع في الماضي. وإنْ أراد أحدٌ أن يشتكي، فبإمكانه مناقشة الأمر مع التَّكَتُّل الزراعيّ. أو في وسعهِ التقدُّم بِشكوى إلى الذُّرَة، وسوفَ تكون الاستجابة في كلتا الحالتين هي نفسها تقريبًا.

ثَغَت النعاجُ من حظيرتها ثُغاءً عاليًا، بأحداقٍ هائجةٍ مُتوحِّشة. شَبَّتْ بيفرلي على قائمتيها الخلفيّتين. ودارتْ نيكس في حَلقات.

صِحتُ: أمّي! أمّي!

صعدتُ الدَّرجَ عَدْوًا، وطرقتُ باب المُحتَرَف.

- لا شيء يدعو إلى القلق يا حبيبتي. تَسرَّبَ صوتُ أمّي من تحت الباب. تقاطرَ من على الجُدران. وانسكبَ على السلالم، جعلني أنزلقُ – ارجعي إلى فراشكِ. التصقَ صوتها بجلدي. في شَعري. تَجمَّدَ على أطراف أصابعي.

صرختُ: ما الذي يجري؟ وقفتُ أعلى الدَّرَج، وقبضتاي تخبطان على باب المُحتَرَف خبطًا.

- لماذا يجب أن تكون هنا؟ هَمَسَ صوتُ رجل. في الهواء. في النَّافذة. حلّقَ مثل طائرة درون هاربة فوقَ حقولٍ لا نهائية. –لا أحد يُريدها هنا.

حفيفُ أجنحةٍ. تَمزُّق قماشٍ. ثُغاء النعاجِ في الخارج. وأنا أخبط على الباب.

هتفتُ: أمي، دعيني أدخل، أرجوكِ! أمي، افتحي الباب!

«لا بدّ وأنك علمتِ بشأن والدتي». قالت أمي. لم أسمع هذا بِأُذنيَّ. لم يكن صوتها المُتكلِّم. وإنما كانَ صوتها في رأسي. «عرفتِ بقصة والدتي. لقد دَأَبَت على تخفيفِ ويسكي والدي بالماء لتحفيز أعراض انسحاب الكحول لديه شيئًا فشيئًا، مع العلم، أنَّ الكمّية لم تكن كافية لقتله، وإنما فقط لجعله يشعرُ بالإعياء إلى درجة أنه يريد الذهاب إلى المستشفى. واعتادت

أن تُخفي عنهُ مُهدّئات الخيول وديازيبام[27] الأغنام، لأنهُ كانَ يتناولها مثل الحلوى. كانت لديها ندبةٌ غائرةٌ في صدغها منذ أن غرزَ حذاءه في وجهها. وقد فقدت ثلاث أسنان بسببِ قبضته. لم يكن عنيفًا معنا أبدًا - حتى عندما طارتْ بعيدًا، على الرغم من جناحيها المهيضين. لم تقطعْ مسافة بعيدة. التَقَمَها فكُّ المحراث. وأحسبُ أن جسدَها الآن ليس سوى صفٍّ من الذُّرة المُستنسخة. أهذا ما تُريدينهُ لي؟».

قلتُ: أنتِ لستِ والدتك يا أمي. مع مَن كنتُ أتحدَّث أصلاً؟ لم يكن هناك أحد. ومع ذلك. شعرتُ بأمي داخل عظامي. شعرتُ بها في الهواء. لم تكن أدواتي معي. ألقيتُ بجسدي على الباب بقوّة. ركلتُ وركلتُ إلى أن بدأ الخشب يَتشقّق – أنتِ أنتِ. تنتمينَ إلى نفسكِ. أنتِ تنتمينَ إلى نفسكِ. أنت لي ولمايكل. أنتِ تنتمينَ إلى فنِّكِ. لا نريدكِ أن تطيري بعيدًا. وغَصَصتُ بالبُكاء.

«ولكن هذا ما تفعلهُ الأمهات. في المزرعة. تنبتُ لنا أجنحةٌ ونُحلِّقُ بعيدًا».

- فعليًّا، لا توجد عائلة من هذا القبيل يا أمي. وركلتُ الباب، مَرّة بعدَ أخرى.

«لم يكن من المفترَض أن يرحلَ والدكِ أوَّلاً».

ركلتُ الباب، حتَّى ازدادت الشُّقوق عُمقًا.

«مَرِضَ، فارق الحياة وتَركنا، وكانَ الأمر برمَّتهِ خاطئًا. الأمهات هُنّ مَن يُغادرنَ المزرعة. الجميع يعلمُ ذلك».

ركلتُ الباب، فَانفلقَ الخشب.

«في سَالفِ الأيَّام، وقعتْ فتاةٌ في حُبِّ بجعةٍ، أو نَسر، أو كُركيٍّ. لا فرق، فَجوهر القصة هو نفسه، كما تعلمين».

- لسنا في قصة يا أمي. إنَّها الحياة الواقعية. خرجَ صوتي مبحوحًا وجافًّا.

تَهشَّمَ الخشبُ وانهارَ. دفعتهُ واقتحمتُ المكان.

ومضَ الضوء في الداخل. كانت أمي والكُركيّ. ومضَ الضوء. كانت أمي مع رجل. ومضَ الضوء. كانَ رجلٌ وكُركيّ. ومضَ الضوء. كانَ هناك كُركيّان، أحدهما يحتجزُ عنق الآخر بمنقاره.

صرختُ قائلة: «أَعِدها»! أكنتُ أتحدثُ إلى كُركيّ أم اثنين؟ أكنتُ أتحدّثُ إلى الرجل؟ أم كنتُ أتحدثُ إلى أمي؟ «أَعِدها الآنَ»!

انسحبَ الكُركيّ الأصغر. كانَ أصغر بكثير من الكُركيّ الآخر – له منقارٌ رقيق، وريشٌ كريميّ اللون. جَثَمَ على حافة النافذة. لقد كانَت أمي، عارية في ضوء القمر. كانت هي الطائر، وصوتُ نحيبٍ حزين في حنجرتها. ثمّ كانت أمي من جديد. قالت وهي تنشجُ: هذا كلُّهُ خطأ.

شددتُ البندقية وهيَّأتُها على طيَّة ذراعي. كانت أمي طيرًا فَامرأةً ثمّ طيرًا. وكانَ الكُركيُّ رجلاً ثمّ كُركيًّا ثمّ رجلاً. لم أستطع إطلاق النار على رجلٍ. ولكن في إمكاني إطلاق النار على ذلك الطائر الملعون. سدَّدتُ النظر إليه، وتَنفّستُ بِبطء، وَتَحيّنتُ اللحظة المناسبة.

انفجرَ المصباحُ، وَعمَّ الظلام. ضحكَ رجلٌ. وصاحَ كُركيٌّ. شيءٌ حادٌّ شَرَطَ خَدّي، وطعنني في خاصرتي. تعثَّرتُ إلى الأمام، وشعرتُ بيدٍ، شعرتُ بريشٍ، وأحسستُ بوطأة شيءٍ كبير وثقيلٍ على جمجمتي. ضحكة. صرخة عالية. صوَّبتُ بندقيتي في الظلام، سمعتُ عويل كُركيّ، وسحبتُ الزّناد. وبعد ذلك لم أشعر بِشيءٍ على الإطلاق.

(27) ديازِبيام، Diazepam: دواء مهدِّئٌ ومرخٍّ للعضلات.

٢١

لحمُ كُركيٍّ مشويٌّ في الفرن؛ وإن شويتهُ على مهلٍ وعلى نارٍ هادئة -وإن حشوتهُ بالبصل والجَزَر الذي خزّنتهُ في قبو التخزين(28)، والذي زرعته مِن قَبلُ في الحديقة الخلفية– فإنَّ مذاقهُ ليس طيبًا ولا شهيًا. كانَ لحمهُ قاسيًا وقوامهُ ليفيًّا عسيرَ المضغ و... – حسنٌ، الوقاحة ليست مذاقًا، في حدِّ ذاتها، ولكن لو كانت الوقاحةُ مذاقًا، فإنَّ هذا اللحم سيكون طعمهُ وقحًا.

ومع ذلك.

كانَ الطَّعامُ طعامًا، وكنّا جائعين.

لقد أحسنت أمِّي تعليمي. عرفتُ كيفَ أنتفُ ريش الطير، وأستخرجُ أحشاءه. وعرفتُ كيفَ أنتفعُ مِن الموردِ عندما يطرحُ الموردُ نفسه. عرفتُ كيفَ أُبدِّلُ المكوّنات وأُعزّزُ من فائدتها، وكيفَ أُعِدُّ وجبةً من مُخلّفات الطَّعام. تعلَّمتُ تخزين الأشياء التي ستحمي عائلتي. هذه مهارات لا يمكنك إغفالها.

تناولنا، أنا ومايكل، بقايا لحم الكُركيّ لمدة ثلاثة أسابيع، الوركين أوّلاً، ثمَّ الجناحين، ثمّ فَتفَتنا اللحم على الأرز، ثمّ وضعناهُ في شطائر، ثمَّ خلطناه مع المايونيز، ونثرنا فوقهُ رقائق الخبز المالح. سلقنا العظام من أجل المرَق، وحَسَونا الحَسَاء لعدّة أيام.

- هل أنتِ متأكدة أنها ليست أمي؟ سألني مايكل ألفَ مرة بعدما أوضحتُ له ما حدث في تلك الليلة.

ثمّ سألني ألف سؤال آخرَ بعد ذاك.

- أنا متأكدة. وبلا أدنى شكّ، كما تعلم. وابتلعتُ اللقمة.

بات من الصعب حينها الحديثُ في الأمر. وسرعان ما سيأتي اليوم الذي لم نعد نتحدَّث فيه بشأن هذا الموضوع إطلاقا. كلٌّ منا، أنا ومايكل، أدركَ الحقيقة في قرارة نفسه. «حسنٌ، إنه هو، الكُركيّ. ذلك الذي أرادت منا أمي أن ندعوه «أبي»، ولكنه ليس أبانا. الكُركيُّ. والذي كان سافلاً بالمناسبة».

أضفتُ ذلك لأبرِّر الأمر لنفسي وأبدِّد شكوكي، أكثر من أي شيءٍ آخر. كنتُ قد قلتُ لنفسي إنني لن أطلقَ النَّار على رجلٍ أبدًا. ولم أكن متأكدة مما إذا كانَ رجلاً عندما أطلقتُ النار عليه. عندما أعدتُ تشغيل الأضواء، كانَ مثل الكركي بالفعل، وكانَ ميتًا من دون شكّ. وأنا

ابنة أمي. وأمي كانت ابنة فلاَّح. كلتانا عَرَفت كيف تكون عمليَّة بلا رحمةٍ. حتَّى أنني لم أتساءل ما الذي سيحدثُ بعد ذلك. فعلتها فحسب. وسَرَت الأمور.

أضفتُ قائلةً: «علاوة على ذلك، كانَ يعتمرُ تلك القبّعة الغبية». ولم يكن هذا صحيحًا تمامًا. إذ كانت القبّعة بالقرب من الطائر. قريبةً بما فيه الكفاية. «وعلى أيِّ حال، كانَ الكُركيُّ الهامِد على أرضيّة المُحتَرَف ضخمًا. أطول من أمي. وكانَ ريشهُ رماديًّا، وليسَ أبيض اللون بصورة مذهلة، مثل ريش أمي... أقصدُ، أنا بكل تأكيد أطلقتُ النار على ذلك الكُركيّ. الكُركيّ الصحيح».

* * *

لعدّة أيام لم نَحكِ، أنا ومايكل، أيَّ شيء لأيّ شخص عمَّا حدث. ذهبنا إلى المدرسة، أو ذهبَ إلى المدرسة بعدما أوصلتهُ، ثمّ عدتُ أدراجي إلى البيت. نظّفتُ المنزل. حَفَفتُ المُحتَرَف حَفًّا. أزلتُ كلّ أثرٍ يدلُّ على أن كُركيًّا عاشَ هنا، الحذاء ذا الثقوب عند المخالب، والقُبّعة، والرِّيش الذي غزا كل غرفة في المنزل. وقضيتُ وقتًا مع النعاج.

كانَ لا يزال هناك عدة أيام ليحينَ مزاد منسوجة أمي، إلَّا أن العروض كانت أضعف مما تمنَّيتُ. ربما كانت أوصافي بالغة الغرابة. وربَّما لأني لم أتمكن من إدخال النطاق الكامل لمسعى أمي في عدسة الكاميرا. لذلك ألغيتُ عملية البيع، واعتذرتُ من المزايدين. قائلة إن أمي أدركت أن لديها المزيد من التفاصيل التي تريد إضافتها، ولم تكن مستعدة لإتمامها والتخلّي عنها بعد.

ذَكرتُ في رسالتي الإلكترونية: فنّانون، مَا العَملَ معهم؟! ووقَّعتُها باسمِ بروس.

بعد يومين، بدأتُ بنشرِ شائعات وإيحاءات في مختلف غُرف الدردشة، ومنصّات التراسل – باستخدام أسماء مستعارة مختلفة بالطبع– تُفيد بأن والدتي قُتِلت.

أو بأنها اتّخذت لنفسها مخبأ.

أو بأن هناك من يُطاردها.

أو بأنها اختفَت ببساطة.

«عاشقٌ مُحتَقَر»، كتبتُ في أحد المنتديات.

وفي منتدى آخر: «التكتُّل الزراعيّ».

«شَهِدَت أمرًا لا ينبغي لها أن تعرفه، وشكّلَ «تهديدًا لَهُم»»، كتبتُ في موقعٍ مؤيّد لنظريّة المؤامرة.

«هذه البلدة لم تتقبّل يومًا مَن هُم مِن صِنفها»، أشرتُ إلى جمهورِ قُرّاء مُتعاطف.

لم أُضِف شيئًا إلى موقع أمي الإلكتروني. وتوقّفَ بروس عن الردِّ على الأسئلة.

ولكن الشّائعات تَفَشَّت. ظهرت مِنصّات التبرّع الاجتماعي، وانتشرت عبر الإنترنت مقاطع الفيديو التذكارية، فُتِحَت الآلاف منها دفعة واحدة، مثلَ الهندباء البرّية. كلّما زادَ عدد الأشخاص الذين اعتقدوا أنه ربما قد يكون هناك احتمال بأنها توفّيت، ازداد الاهتمام بأعمالها. أحيانًا، تكون ردود أفعال الناس نَمطيّة ويمكن التنبّؤ بها إلى درجة مُحبِطة.

وفي الأثناء، بدأتُ في تصويرِ كلِّ ما تمكنتُ من العثور عليه وتَنسيقهِ وتَعبئتهِ، وأعلنتُ عملية بيعٍ جديدة. أنشأتُ موقعًا إلكترونيًا جميلاً للمزاد، مع صورة أمي في المنتَصف. كانت في ثوب زفافها (مُنتفخة تقريبًا في بداية حَملها بي)، في شَعرها زهورٌ، ترنو بوجهها نحو السماء. اكتَظَّت الصفحة الثانية بصورٍ مُصغَّرة لعملها. وجَعلتُ لها عبارات وصفيّة (وسُومًا). كما أنشأتُ قائمةً رئيسية بالأسعار المطلوبة لبدءِ المزايدات. وضعتُ كلّ ما تمكنتُ من إيجاده في البيع. اللّوحات التي رَسَمتها على خشب حظائر عتيق، ورَمَتها في القبو. الوسائد المشغولة بالإبرة، ويارداتٍ من الأقمشة المنسوجة يدويًا. الفستان الذي طرَّزَتهُ بكثيرٍ من التفاصيل النَّيقة، وارتدتهُ عندما فازتْ بإحدى الجوائز. صندوق من كرّاسات الرُّسُوم التخطيطيّة. بطّانيات الرّمي الخفيفة مع مُدن الظلِّ المتوارية في الغُرَز، والمعلّقات الحائطية الزّاخرة بالغاباتِ والأحياء المستقبليّة والعوالم الجوفيَّة -كلها كانت تجارب «بروفات» تَخلَّت عنها وأعادت استخدامها– التي ملأتْ بيتنا. وصنعتُ صفحة منفصلة للمنسوجة الأخيرة، وحدّدتُ مَبلغًا باهظًا للمزايدة الافتتاحية، إلى درجة أن الرقم جعلني أشهق -وتملّكتني الدهشةُ عندما وَفَدَت الأرقام، وازدادت على الفور تقريبًا. حتى أنني، وبِقلبٍ مُترَعٍ بالأسى، نشرتُ إعلانًا عن بيع نعجاتنا الثلاث. لم أستطع النظر إلى أعينها بعد أن فعلتُ ذلك.

«مِن أجلِ مايكل»، قلتُ في نفسي بينما كانت النعاج تثغو ثغاء شَجيًا تجاهي. «هذا كلُّهُ كُرمى لمايكل».

استمرَّت الشائعات حولَ صحَّة أمي وسلامتها ومكان وجودها، حتى مع بدء المزاد. أهيَ على قيد الحياة؟ أم ميتة؟ أرسل الناس إلى بروس رسائل إلكترونية وتساءلوا. فكتبتُ لهم: تُحبِّذُ العائلة الخصوصية خلال هذا الوقت. وأضفتُ: يُرجى اقتصار الأسئلة على المزاد فقط. وشكرًا. بروس.

حاوَلَتْ دُور المزادات الخارجية المشاركة، ولكنني بالطبع لم أكن لأسلَم سِنتًا واحدًا من أرباح أمي لأحد. تولَّيتُ أمر عملية البيع بنفسي. وأرسلتُ اتفاقيات سرّية إلى جميع المشتَرين المُحتَملين. وأخذتُ أرقام البطاقات الائتمانية، وحصلتُ على بيانات موثّقة قانونيًّا تُشير إلى نواياهم بالشراء والنقل. كانَ في وسعي أن أطلبَ منهم القمر لو شئتُ. أودعتُ العائداتِ في حساب ائتماني أنشأتهُ سابقًا من أجل مايكل، حتى لا يتسنّى لأيّ شخص –سواء كان وليّ أمر بالتبنّي أو وصيًّا تُعيّنهُ المحكمة أو حتى عائلة مُتَبنِّية– التصرّف فيها حتى يصل إلى سنّ الثامنة عشرة. لم تكن لدينا عائلة أخرى غيرنا، ولم تكن هناك فرصة لبقائنا معًا ضمن نظام التبنّي. ليس بوجود سجلِّ تَغيُّبي عن المدرسة وملفِّ الخدمات الاجتماعية. وليس مع صِغر سنّ مايكل وحلاوتهِ. بل سيحرصونَ على منحهِ أفضل بدايةٍ ممكنة، لا يُثقلها عِبء أخته الكُبرى تَعيسة الحظ.

بعدما بيعت المنسوجة الجدارية، ونَقَلها عُمّالُ نَقل الأثاث الذين استأجرهم المشتري (اثنان منهم اِنهارا باكيين لِمرآها - رجلان ناضجان لم يُعيرا الفنّ نظرةَ اهتمامٍ ولو لثانيةٍ واحدةٍ طوال حياتيهما؛ كانَ لأمّي ذلكَ التأثير في الناس)، بِعتُ في المزاد العلني كلَّ شيء آخرَ خطرَ على بالي، ووضعتُ كلّ سنتٍ في حسابِ مايكل.

بالطبع لا شيء لي. كانَ كلَّه لمايكل بالتأكيد. فأنا ابنةُ أبي. وأعرفُ كيف أحمي عائلتي.

وصلَ ضابط التغيّب المدرسي قبل وصول الشرطة. كانَ رجلاً نحيلاً له ذقنٌ بالكاد يُذكَر. وكانَ يغطي فمهُ بيدهِ وهو يتحدث. أتتِ المرشدة الاجتماعية معه.

قالت بمرحٍ: يتحتّم عليَّ إبلاغك بأني أُسجّلُ هذا التواصل.

قلتُ: أعلم. ليس عليكِ إخباري بهذا في كلِّ مرّة. تَفضَّلا بالدخول، رجاء.

بَدَتِ الدهشةُ واضحةً عليهما لدعوتهما بالدخول بهذه السرعة. شهقَ ضابط التغيب شهقة طفيفة لرؤية المنزل نظيفًا لا تشوبهُ شائبة. كلّ الأسطح لامعة. أنا شبهُ مُتيقنة من أنه لم يكن ذلك ما توقعه. تَنحنحَ.

استهلّ كلامه: يا آنسة، أنتِ لم تسجلي حضوركِ في المدرسة منذُ... ودقَّقَ في ملاحظاته... يا إلهي! كيف غبتِ كلّ هذه الأيام؟

سألتني المرشدة الاجتماعية: أين والدتك؟

قلتُ: أنا أعتني بنفسي وبأخي -وافتعلتُ البكاء– لا أحد يمكنه أن يؤذينا بعد الآن. لم يكن من سبيلٍ لإيقاف ما سيحدث لاحقًا، لذلك اعتقدتُ أنهُ من الأجدى استغلال الموقف.

نزعت المرشدة الاجتماعية نظّارتيها، إلّا أنها وضعتهما على المنضدة وما زالتا في مواجهتي، ولا تزال الأضواء في زاويتيها تُشِعّ مثل الزمرُّد. ربَّما حَسِبتني ساذجة، ولكن ذلك لا يعني أن أتصرف على أنني

كذلك. مَسحتُ عينيَّ، مُحافظةً على وجهي تجاه الكاميرا.

قالت المرشدة الاجتماعية: سأطرحُ عليكِ السّؤال مرة ثانية. أين والدتك؟

قلتُ: رَحَلت. مع ذلك الرجل. ذلك الذي آذاها. أخبَرَتنا ألَّا نبحث عنها. وأخبَرَتنا بأنها لن تعود.

ثم استدرتُ ناحية النافذة – أشعرُ أحيانًا أنني ما زلت أسمعهما في المُحتَرَف. كانت تصرخ. جذبتُ نَفَسًا مُرتَجِفًا، ثم كوّرت كفّيَّ وغطّيتُ بهما وجهي. وتظاهرتُ بالبكاء - ما كانَ عليَّ أن أقول.

نظرَ الكبيران واحدهما إلى الآخر. ثمَّ اتَّصلا بالشرطة.

* * *

كانَ علينا، أنا ومايكل، تقديم إفاداتنا. نعم، شرحنا. كانَ لديها عشيق يضربها. لا، أضفنا. لا نعلم أين هو. ولا نعلم أين ذهبت. نأملُ أنها بخير.

«بُقعة الدَّم؟» قلتُ للمّحقق. «ذلك مجرّد طير. طارَ داخل البيت، واشتبكَ مع الخيوط. فذُعِرَ، وضربَ جسده على العمود ثمّ على الأرض. طاشَ صوابه وظلّ يتخبط ويخفقُ جناحيه حتى وهو ينزف. أنت تعرف كيف هي الطيور».

قال المحقّق إنهم يريدون اختباره، للتأكد فقط. ففعلوا. أفادَ المختبر بأنهُ ليسَ بدمٍ بشريّ. وذُكِرَ في التقرير

«نوعٌ من الطيور». كدتُ أبكي مِن فرطِ الارتياح.

* * *

استمرَّ هُواةُ الجمع في مطاردتنا، حتى بعدَ بيع كلّ شيء. خَمشوا بابنا الرقميَّ مثل الكلاب. وتساءلوا إن كانَ هناك أيّ شيء آخر، أي شيء بإمكانهم المزايدة عليه. مشاريع غير مكتملة.

ملاحظات على ورق المُسوّدة. ربما، دفاتر يوميات. ربما لوحة أو منحوتة أو سترة مصنوعة يدويًّا. كان الناس مُتعطّشين لاقتناء أعمال أمي.

«فنّانة غامضة تختفي ليلاً تاركة طفليها وراءها»، تَصدّرَ الخبرُ عناوين الصُّحف بسرعةٍ مذهلة. أوردوا في تقاريرهم أنّ الشرطة عثَرَت على دماء في غرفة نومها. وعلى الجدار. وفوق الملاءات. كانَ ذلك صحيحًا بالطبع، وقديما. كانَ الكُركيّ أسوأ مما تصورت. وقالوا إن هناك بقعة دمٍ أخرى في المُحتَرَف، بيد أنهم أهملوا ذكر أنها من طائر. كتبوا مقالاتٍ بعاطفة جيَّاشة عن ولدها الكئيب ذي العينين الواسعتين، باتَ الآن بلا أمّ في عالمٍ قاسٍ لا يرحم. لم يذكروني.

الجانب المشرق في الموضوع، فعليًّا، هو أن مايكل عُهِدَ بِهِ إلى عائلة لطيفة في مدينة جميلة. كتبتُ إليه رسائل كلَّ أسبوع، لكني لا أعلم إن قرأ واحدة منها. لم أتلقَ منه أي ردّ. ووضِعْتُ في منزل رعاية جماعي، غير أني لم أمكث هناك طويلاً.

أراد الناس أن يعرفوا ما إذا كنتُ مثل والدتي. هل أنا فنانة محكوم عليها بالفشل، أو منحرفة جنسيًّا على نحو غير قابل للشفاء، أم مفعمة بالمأساة الشِّعرية؟ أو ربما كنتُ كلّ هذه الصفات في آن معًا. لم يكن شيئًا رغبتُ في التحدث عنه. لم يكن هذا من شأنهم. سارت الأمور على نحو أفضل عندما غادرتُ الدار، ومضيتُ إلى وجهتي بمفردي.

في النهاية، هربَ مايكل من عائلته الحاضنة عندما بلغ السادسة عشرة. كتبَ لهم ملحوظة تقول إنه ذاهبٌ للبحث عن أمي. لم يذكرني. لا أعرفُ حتى إن كانَ يتذكرني جيدًا. لا أعلم بم أخبرتهُ عائلتهُ الحاضنة. لم يأخذ معهُ شيئًا عندما رحل، ولا حتى حقيبة ظهر. اختفى ليلاً فقط. انقطعت أخبارهُ منذُ ذلك الحين. في كلِّ عامٍ أتحقّقُ من رصيد الحساب الذي أسَّستهُ من أجلِهِ، سِوى أنهُ لم يمسسهُ حتى الآن. لا أعرفُ ما إذا كانَ يتذكرُ أنه موجود.

* * *

كانَ ذلك منذُ عشر سنوات. عشرون سنة منذُ أن أمي... حسنًا، لا أعرفُ حتى الكلمة المناسبة لوصف ذلك... منذُ أن ماتت؟ عَبَرت؟ تَغيّرَت؟ الأمَّهات لا يبقينَ في المزرعة. يَطِرنَ بعيدًا. لا أعرف لماذا اعتقدتُ يومًا بأنها سوفَ تكونُ مُختلفةً. على الرغم من عدم تَبقي مزرعة للطيران منها. كيف يمكنك الهروب مِن حقّك المكتَسب منذُ الولادة عندما لم يعد هذا الحقُّ موجودًا؟

كلَّ شهر، أنشرُ رسائلَ على شبكة الإنترنت، على لوحات الإعلانات في المكتبة، في صحفِ أيّ مدينة أعتقدُ أنه ربما ذهبَ أخي إليها. في كلّ مرة تقول الرسالة الشّيء ذاته: «مايكل:

لكانَ كلّ شيء على ما يُرام فقط لو أنها لم تلتقِ ذلك الكُركيّ. أنا هنا عندما تحتاج إليَّ يا صديقي». ما مِن ردٍّ حتى الآن. ومع ذلك، ما زالَ يَحدوني الأمل.

لم أعد إلى المزرعة. أو بيت المزرعة. المزرعة ليست ملكًا لأحدٍ. المزرعة تخصّ الذُّرة. ولا مصلحة لي في العودة.

أعملُ الآن في رسم صور وجوه الناس مقابل المال. أو أرسمُ صورَ كلابهم، والعجيب أنه يُدفعُ فيها أكثر. لا يعود الرسم عليَّ بمردود كبير، ولكني قادرة على تدبّر أموري. ما زلتُ أرسمُ صورًا لأبي. وما زلتُ لا أُريها لأحد. أعيشُ في وسط المدينة، ولكن من الغريب كمُّ الأصوات التي تذكرني ببيت المزرعة. أصوات السُّكارى وهم يترنحون أثناء خروجهم من الحانة ليلاً تذكِّرني بِثُغاء أغنامنا. هدير حركة المرور على الطريق السريع نُسخة طِبق الأصل عن صوت طائرات الدرون. في كلِّ مرة يقلعُ فيها محركُ سيّارة قديمة أهرعُ إلى النافذة لأنظر إلى المحاريث. وفي كلِّ مرة أسمع فيها هسيس الأسلاك الكهربائية الممدودة عبر الزقاق خارج شقّتي، أستطيعُ أن أُقسِم بأنني أسمعُ الصوت الذي تُصدِرهُ الذرة أثناء نموِّها.

ربّما نحنُ في الحقيقة لا نهربُ بعيدًا أبدًا. ربّما كلّ مكان هو المكان نفسه.

* * *

من حينٍ إلى آخر، تحطُّ أنثى طائر كُركيّ على نافذتي. تحدِّقُ إلى حاملِ لوحاتي، إلى ألواني. تمعن النظر إلى النّول الذي صنعتهُ بنفسي ومحاولاتي الأولى في النّسيج. لأنني بالطبع سوفَ أُعلِّمُ نفسي النَّسيج. يمكنك إخراج الفتاة من المزرعة، ولكن لا يمكنك انتزاع النَّسجِ من النَّسّاج. أعتقدُ أننا حقًّا ما وُلِدنا مِن أجلِهِ. تضغطُ أنثى طائر الكُركيّ جسدها على الزجاج. إنها مخلوق جميل، لها ريشٌ أبيضُ مذهل، ومنقار مُتّسق رقيق، في حركاتها ليونةٌ ورشاقة. لاحظتُ اليوم أنها تعاني من جرحٍ غائر في عينٍ واحدة. والقليل من الدم يُلطّخ الزغب على كِفلها. ليست المرة الأولى التي تأتي فيها وهي مصابة. أحاول ألَّا أنظر إليها. تنقرُ على نافذتي مرارًا وتكرارًا.

يبدو وكأنها تقول: «يمكنني مساعدتكِ، كما تعلمين»، وعينُها على القماش المنسوج جزئيًّا على النوْل.

أقولُ بصوت عالٍ: لستُ في حاجةٍ إلى أيّ مساعدة. وأعودُ إلى عملي. تظلُّ أنثى الكركي على عتبةِ النافذة، وعُنقها الطويل يمتدُّ إلى الأمام بِعذوبة. تُميلُ رأسها. عينها السّوداء بِركةٌ من الحِبر. حُفرةٌ لا قرارَ لها. إنَّها نجمٌ مُنهار، بكلِّ كثافتهِ ونَهَمهِ وجاذبيّتهِ الجبّارة، يجذبُ

كلّ جسمٍ في مجالهِ نحو مركزهِ، ليُفكّكهُ ويُبطِلهُ ويَمحوهُ، ثم يستحيلَ التعرّفَ إليه. كيف يمكنُ لأيّ أحدٍ النّجاة من هذا النوع من الحُبّ؟

«إنّ الفنَّ موجودٌ لِتَخطّي المألوف، ولِأَسْرِ عقولنا، ولِتَحفيزِ التَّغييرِ فينا»، تنقرُ نافذتي بإصرارٍ مُتزايد.

- هذا ما قيلَ لي من قبلُ. قلتُ من دونَ أن أرفع بصري.

«أستطيع أن أجعلهُ جميلاً. أستطيعُ أن أجعلَ كلَّ شيء جميلاً. يمكن للفنّ أن يُغيّر حياتك. بإمكانهِ أن يَهَبكِ أجنحة. ويمكنكِ الطيران بعيدًا. ألا تريدين أن تطيري بعيدًا؟»."

أتساءلُ إن كانت تعلم أنها كذبة. لا أنهضُ. لا أنخرِطُ. أصنعُ فنِّي الخاص. وعلى نوْلي أُضيفُ غُرزًا إلى قطعةٍ كنتُ أعملُ عليها. صبيٌّ صغير يركضُ في حقلِ ذُرةٍ، يُلاحقُ طائرًا، خِيطَ زِرٌّ أحمرُ لامعٌ فوق قلبه. أَعقِدُ الخيطَ وأَشدُّهُ بِإحكَامٍ.

(28) قبو التخزين: بناء تحت الأرض لتخزين الخضراوات والفواكه والمكسرات ومختلف الأطعمة في درجة حرارة منخفضة ورطوبة ثابتة.

شُكرٌ وعرفان

كتبتُ هذا الكتاب في عربةِ سَكن مُتنقّلة قديمة، اشتريتها من مزرعة في جنوب ولاية مينيسوتا. أوضحت الأرملة التي باعتها أن الأرض كانت ملكَ عائلتها منذ زمن طويل، لكنها على وشك أن تُباع، وسَيُهدمُ بيت المزرعة القديم لإفساح المجال لزراعة مزيد من الذُّرة. «من الغرابة بمكان أن تبيع إرث عائلتك لشخصٍ ليس شخصًا على الإطلاق»، قالت لنا بينما كنا نوقع أوراق شراء السيارة التي رجونا أن تكون سليمة بما يكفي لِنقلِ عائلتنا عبرَ ولايات عدّة. وافقتها القول، ولكن ما الذي يمكنك فعله؟ فالعالم يتغير بعد كلّ شيء.

كتبتُ هذه القصة إلى حدٍّ كبير بمحض الصدفة. كنا في عمق الوباء[(29)](#) ونَصحبُ ابننا الأكبر -الذي لم يتلقَّ التطعيم بَعدُ - إلى الجامعة. كانت فترة مَشوَبةً بالقلق. قطعنا دورةً واسعة مُزدانة بالمناظر الطبيعية الخلاَّبة، تجنُّبًا للازدحام، وسافرنا عبر طرقٍ ريفيّة ساحرة تناثرت فيها المباني الريفية المهجورة، وامتدَّت على طولها حقول الذُّرة والصُّويا حتى السَّماء. في مكانٍ ما، من ولاية إنديانا، اعترتني الدَّهشةُ عند رؤية كُركيّ يقفُ على عارضة سقفِ منزلٍ مُتهالك. لا أعرف لماذا أثار انتباهي إلى هذا الحدِّ! ولا أعرف لماذا اختار أن يقضي وقته على ذلك السقف المتداعي بالتحديد، كمثل ملكٍ عنيدٍ متشبّثٍ بِمملكةٍ تهوي نحو الخراب. وإذ غمرتني أفكار الانحلال واليأس، وتغيّر الأعراف وتآكل النسيج الاجتماعي، والصمود والبقاء، وكيفَ ننجو ونصمد ما دمنا على قيد الحياة، فتحتُ حاسوبي، ودخلَ الكُركيّ إليه.

وما كانت هذه القصة لتكون ما هي عليه الآن من دون أسئلة «جوناثان ستراهان» اللطيفة وإيجابيته غير المحدودة، وإذا تحديتك أن تجد مًحرِّرًا أفضل منه، فأنا أؤكِّدُ لك على أنك لن تربح التحدي. كما كان للانتقادات المتَبصِّرة التي تلقيتُها من أفراد مجموعتي الكتابية «وايردسميث» دورٌ بالغ الأهمية (ليدا مورهاوس، ونعومي كيرتزر، وثيو لورينز، وآدم ستيمبل، وإليانور أرناسون)، بالإضافة إلى قرائي الآخرين (فريق المُشجِّعين؟): لورا روبي، ومارثا بروكينبرو، وأولوغبي ميسولا روداي- بيركوفيتش، ولوريل سنايدر، وتريسي بابتيست، وليندا أوربان، وكيت ميسنر. إنَّ الكتابة هي سَعيٌ فرديّ، إلَّا عندما لا تكون كذلك. وأين سيكون أيٌّ من هذا من دون «ستيف مالك»، وكيل الأعمال والبطل، الذي يحتملُ الكثير، إن أردنا قول الصدق. إنَّ مسيرتي المهنية موجودة بفضلك يا ستيف. شكرًا لك على كلِّ شيء.

[(29)](#) جائحة (كوفيد-١٩).

المؤلِّفة

كيلي بارنهيل (١٩٧٣) كاتبة روائية أمريكية، متخصصة في أدب الأطفال والفانتازيا والخيال العلمي. مؤلفة رواية للكبار «عندما كانت النساء تنانين»، والعديد من روايات الصفِّ المتوسط (روايات اليافعين)، وروايتيها في قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا «الفتاة التي شَرِبت من القمر»، التي حصدتْ «ميدالية جون نيوبيري» لكتب الأطفال عام ٢٠١٧، ورواية «الغولة والأيتام». كما حازت على «جائزة الخيال العالمي/ World Fantasy Award» و«جائزة اختيار الوالدين الذهبية». وقد بلغتْ نهائيات جائزة نيبولا (آندري نورتون نيبولا/ SFWA Andre Norton Nebula Award) المقدَّمة من رابطة كُتّاب الخيال العلمي والفانتازيا، وجائزة «نادي القلم - أمريكا PEN America».

تعيش كيلي بارنهيل اليومَ في ولاية مينيسوتا مع زوجها وأطفالها الثلاثة.**صدرَ للمؤلِّفة**

- عندما كانت النِّساء تنانين.
- الغولةُ والأيتام.
- السيِّدات الشَّابات المروِّعات وقصص أخرى.
- فيوليت ذات القلب المتحجر.
- السَّاحر غيرُ المرخَّص.
- القصَّة الحقيقية، على الأرجح، لِجَاك.
- ابنُ السَّاحرة.
- الفتاة التي شَرِبت مِن ضوءِ القَمر.

المُترجِمة

عبير عبد الواحد، شاعرة ومترجمة سورية، نشرت العديد من المقالات والترجمات الأدبية والنصوص الشعرية. حائزة على إجازة في الآداب، قسم اللغة الإنكليزية. ودبلوم في الترجمة والتعريب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – دمشق/ سورية.

صدر لها في الترجمة:

- رواية «وجوهٌ في الزّحام» لـ«فاليريا لويزلي»، دار المدى- العراق، (٢٠١٨).
- الملحمة الإيسلندية «أناسٌ مُستقلّون» لـ«هالدور كِليان لاكسنس»، دار المدى – العراق، (٢٠٢١).
- «مُذكَّرات فَانتي» لـ«دان فانتي»، دار أثر – السعودية، (٢٠٢١).
- رواية «ذاكرةُ الرَّحيل» لـ«عبدالرزاق قرنح»، دار أثر- السعودية، (٢٠٢٢).
- رواية «قِصَّة أسناني» لـ«فاليريا لويزلي»، دار المدى – العراق، (٢٠٢٢).
- نوفيلا «الزَّوجُ الكُركيُّ» لـ«كيلي بارنهيل»، منشورات تكوين، الكويت، (٢٠٢٣).
- رواية «أرشيف الأطفال المفقودين» لـ«فاليريا لويزلي»، دار المدى، العراق، (قريبًا).

1. الغلاف
2. الزَّوجُ الكُركيُّ
3. الاهداء
4. ١
5. ٢
6. ٣
7. ٤
8. ٥
9. ٦
10. ٧
11. ٨
12. ٩
13. ١٠
14. ١١
15. ١٢
16. ١٣
17. ١٤
18. ١٥
19. ١٦
20. ١٧
21. ١٨
22. ١٩
23. ٢٠
24. ٢١
25. شُكرٌ وعرفان
26. المؤلِّفة
27. المُترجِمة